قُرْبَ النَّهْرِ

عبدالحسين أحمد الخفاجي

رواية

قُرْبَ النَّهْرِ

الإهداءُ

إلى ...

المناضلين الأوائل

من أي مسمىً ، وفي كل جيل

ممّن أُكلوا من غير تسميةٍ ، وبلا أيّ

تتمّة حمدٍ البتّة

مع الإكبار والإجلال والاعتزاز

مقدمة

قضيت ما يزيد على ثلاثة عقود من سني الرشد وأنا أشاهد ، أو أطّلع من طريق المطالعة ، وسماع الأحاديث عن مرارة تجارب الذين يُؤثرون ما يؤمنون به كفاحاً من أجله ، ومناشدةً له ، فَيهِبُون كلّ ما يملكون من أجل ذلك ، وأغلب هؤلاء يفارقون هذه الحياة بين التشريد ، والقتل ، بمرارةٍ وكمدٍ ، وبعدما يزهر زرعهم ، ويينع ثمره يغنم الأدعياء كلّ شيء بمنتهى اللؤم ونكران الجميل . كما حصل لي في أكثر من مفصل .

تلك كانت البداية لتقديم أمسية على قاعة الشهيد نجاح حمدوش في محلية ديالى للحزب الشيوعي العراقي فيما سموه بملتقى السبت الإبداعي أتناول فيها سيرة ومسيرة محمد الدفاعي الشيوعي بامتياز ، وحالما بدأت أجمع عنه ما يتيسر من ابنه خالد الطيب ، وبعض المنابع الأخرى وجدت أنّ المسألة أكبر من أن تكون أمسية ، ولعلها تكون عابرة ، فدار في خلدي أن أكتب عنه رواية تتسع لما يمكن جمعه عن هذه الشخصية ، وتلبية لرغبة قدح أوراها حبي للأدب ، ورغبتي بخوض تجربة كتابة الرواية لأحقق فيها عدة أماني ، فكانت روايتي الأولى ((**قرب النهر**)) .

أظن أنّ هذه التجربة تعدّ من السهل الممتنع ؛ لأن المعلومات عن شخصية محمد الدفاعي يسيرة ، ولا تروي من عطش أو تسمن من جوع ، فضلاً عن تضارب بعضها ، والجهل بالكثير من حيثيات مرحلة صباه ومراهقته ، ولم أعثر على أي مخطوط ، أو تسجيل له ، ولم أزود من قبل ولده خالد إلاّ ببعض الوريقات التي ضمنها بعضاً مما يعرفه وحصل عليه بتعاونه معي مشكوراً ، وبعض الصور ، والشهادات التي حصل عليه والده بعد وفاته بأكثر من عقدين ونصف من السنين ! .

كان لزاماً عليّ أن أنسج حوارات لمحمد الدفاعي أستقي منها ما يسرده في أحاديثه لتلك الحوارات التي اشتهر فيها عندما كان يرتاد نادي نقابة المعلمين ، ومقهى الطليعة في بعقوبا ليسجل حضوراً واسعاً متصدراً أماسي الخمر ، والشاي . بين أحبته ومُريديه ، وبعضاً من المعجبين والمتأثرين بما كان يشتهر به من أُفقه الواسع وثقافته الغنية بالمعرفة والعلم على الرغم من أنّه لم يحصل على شهادة الدراسة الابتدائية !.

إنّ قادة أي جيلٍ من الأجيال لا يمكن أن يكونوا غرباء عن جيلهم ؛ لأنّهم منه وإليه ، وهم في انبثاقهم عنه إنما يعملون من أجله . ومعنى ذلك أنّ نشاط القوة الخلاقة أو خمولها عندهم ، إنّما يتوقف على نوع العلاقة التي تنشأ بينهم وبين الذين يتفاعلون معهم . ولا دخل هنا لتعميق جدوى هذه العلاقة ، أو لا دخل لما قد ينجم عنها من خير أو شر ، فالأمر في ذلك موكول إلى معايير أخرى هي أكبر من أن يشار إليها هنا لمحاً . أقول ذلك وأنا أنسج غزلي من غير نسيجٍ ، أو سنارةٍ ! . تلك هي مأساة التفريط بتدوين الذكريات ، وغياب أدب المذكرات وأنا على ثقة من أننا أمام تراث ضخم وضعه قادة قلّ نظيرهم ، وانعدم نظيرهم .. قد لا يكونوا إلاّ مثلاً لأنفسهم ليس إلاّ ، ومعنى ذلك أنّ أية شخصية مائزة ليست في الواقع إلاّ نبتةً طلعت في تربةٍ أخصبتها أيْدٍ لم تكلّ يوماً من الأيام البتة!. وليس من الضروري أن تكون الشهادة رديفاً ، أو السبب الأوحد لهذا النبوغ والنبوغ .

وأنا أسجل وافر شكري وامتناني لكل من أسهم في ولادة روايتي الأولى هذه ، ولاسيما الطيب خالد محمد الدفاعي الذي بذل جهداً كبيراً زينه عطر رغبته في أن يقدم شيئاً لوالده تجسيداً لاعتزازه به ، وحبه الكبير له ، واعجابه المثير به ، فضلاً عمّن التقيته وحدثني عن شخصية محمد الدفاعي وهم كثر . أود أن أؤكد قصر باعي ، وفقر بضاعتي راجياً ممن يتكرم علي بما

يسجله من ملاحظات ومؤاخذات ، فكلها سحابات ستنث غيثاً بطعم الشهد طمعاً في رواية قادمة لشخصية أخرى من قريتي الخضراء الهويدر الغنّاء .

قبل البداية

في غابر السنين . بعيداً في حفريات التاريخ ، وذاكرة الزمن الطويل لعراق الرافدين ، عراق سومر وأكد . هناك عندما غير نهر ديالى [١] . ذلك النهر الذي يعتريه الجنون أحياناً ليجرف بأمواجه ما لذ وطاب له من أشجار الحمضيات ، والنخيل الممتدّة على ضفتيه كأهداب حورية في طول مجراه المتعرج لمحطات سيره بين القصبات ، والمدن والقرى المتناثرة بالقرب منه يمنةً ويسرى ، وما بين استقامة بعض أوصاله ، وتعرّج الكثير من أجزائه يرسم الشواطئ التي تزدان بخضرة المزروعات تسقيها رماله الباردة بما تمّه من رطوبة النهر لتبثّ الحياة في هذه المزروعات من الخضروات المتنوعة كالقثاء ، والبندورة ، والشمام ، والبطيخ ، واللوبياء ، والباميا ، والباذنجان ، والفلفل . تلك الخضروات التي يفوح طعم الطيب والأصالة من ثناياها ، ومسحات الأكف التي تراقصت أناملها لتجنيها ، وترفد بها ناس أيام زمان ممن تلبس ثوب النوايا الحسنة ، وسذاجة الظن البريء بالآخرين ، فما كان من الله إلاّ أن يغدق عليهم رحمته ، ومنّه في عيشةٍ راضيةٍ ملؤها السعادة والبساطة ، ويسر المعاملات ، والعلاقات . بعيداً عن الغبش والدغش ، وما نفث فيه الشيطان من سموم الفرقة ، والغدر ، والمكر ، والخداع ، والحيلة السيئة . في تلك المراسيم ، وعزف نغمات ذلك الزمن الغابر عمق التاريخ الطويل ، وفي تبدل وتغير تعرجات هذا النهر ، وفي صباح تغيب فيه الشمس ، وتشرق مرةً أخرى ، وتغيب ثانيةً ، وتشرق أيضاً ، وما بين ذلك الشروق ، والغروب ، وتسابق الغيوم الرمادية المشربة بالعتمة والغبرة ، وسواد خفيف حارَ النهر في فهم ما يجري ويمر ، وكأنه ينذر بحدثٍ جسيم سيحدث على حين غفلةٍ . غيّر النهر مجراه مائلاً صوب ذيل خان اللوالوة [٢]

متهيباً من القلعة في قرية الهويدر[٣] الخضراء الشامخة حذو جريان مائه ... حبلى بوليد طال انتظارها له وهي تئن من سموم الإقطاع ، ونخر التخلف والجهل .

هناك قرب النهر كانت القلعة تحدث نفسها عن وليد بعينين خضراوين سيكون له شأنا تأنس بمجده من ظلام لياليها الطويلة في هذا الكون الفسيح . يبدو أن القدر اختار للماء أن يكون قريباً من وجوده ليتنفس نسائمه ، ورائحة أسماكه المتنوعة ، مخبراً القلعة بأنّ هذا الوليد سيمنحك العنفوان والخلود في سجل الوطنية ، والاعتزاز بالأرض وعطر خضرتها ، وفيء نخيلها وأشجارها .

بعد سكون دام طويلاً في قريةٍ يحيطها الماء باستدارته منذ زمان بعيد تاركاً لها نافذة صغيرة إلى بعقوبا[٤] مسجلة حضوراً وارتباطاً مع هذا العالم ، فأكسبها المدنية مبكراً قبل جاراتها من القرى ، ولذا أُسست فيها مدرسة للتعليم الابتدائي في العقد الثاني من القرن العشرين منحته تعلّم القراءة والكتابة بعد أن حال الفقر والعوز الذي عانى منه والده المثقل بالزيجات الثلاث بينه وبين اجتيازه الصف الرابع فيها ، ثمّ أعقب هذه المدرسة إنشاء مستوصف صحي قبل منتصف العقد الثالث من ذات القرن [٥] لتؤكد مدنيتها بإصرار مبكر .

هدأ أنين القلعة وهي ترقب نمو هذا الوليد الذي سيمنحها وجودها اللائق ، وشموخها الرائق ، وصدارتها ، ونظارتها في ترحابها للقادم المار بها قبل ولوجه في القرية الخضراء . هي لا تعلم بفاجعتها التي ستحل بها بعد ثمانين عاماً إلاّ نيفٍ من السنين عندما يختطفه القدر مرة أخرى . بيد أنّ اختطافه هذا كان بعيداً عن النهر الذي شحب ماؤه ، وبان رمله ، وضاق مجراه ،

وخف جريانه ، وصار عرضةً للرياح السموم التي كانت تخشاه حالما ترى بواسق النخيل من على يمينه وشماله .

كم طال حزنك أيتها القلعة على هذا الوليد ، فقد مرت السنون سريعاً تمطرك الأنين ، ومر الفراق ، وفقد الأحبة حتى تيقنت بدرس القدر الذي كتبه في صفحاتك المتبقية من كتاب صار في عداد المنسيات ... هناك في زاوية من مكتبة القدر يحكي عن قصة مولود أزهر ... **قرب النهر**.

القلعة ...عرب الهويدر

في يوم غبّرته أنفاس ، وأحلام المستعمر ، فشزرها بعيون ذئاب بريةٍ مخسوفة البطن ... حادة المخالب والأنياب ... صفراء العواء . سال لعابه الحنظل لبهاء موقعها الاستراتيجي ، فقضمها بأنيابها بعد أن أنشب في خديها مخالبه ليوظفها حامية من حامياته المنتشرة في جسد العراق كغدد السرطان الفاتك .

أصبح الصباح على قلعةٍ جاثمة على صدر النهر في منعرج سيره وتاريخ هذه الرقعة الخضراء . فهي تطل على وادي نهر ديالى الشهير ، وهي أقرب النقاط صوب بعقوبا. مرت الأيام بخطى ثقيلة كأن الشلل فتك بها حتى غادروها منسحبين بعد خسائر متتالية في معاركهم مع الغزاة الجدد ... بنو العم سام الإفرنج ، أو الإنكليز ، ونتج عن المعارك التي دارت بين القوات البريطانية والقوات العثمانية تدمير لبعض أوصال هذه القلعة وتركوها أطلالاً ليسكنها بعض الأعراب الذين كانوا يعتاشون على ماتقدمه خدماتهم لأفراد الحامية العثمانية وخيولها .

توافق أهالي الهويدر على تسمية هذه الرقعة منها بالقلعة تميزاً لها عن اسم قريتهم التي مثلّت عمقها وحاضنتها الوفية . تدافعت الأيام بسرعة وبدأ بعض الأعراب يقصدونها من مناطق متنوعة للسكن فيما تبقّى في القلعة من الأطلال التي تؤمن لهم سكناً جاهزاً ومجاناً ، فأطلق عليها عرب الهويدر . بيد أن نبض القلعة وروحها المتشبثة بالحياة استعادت تسميتها شيئاً فشيئاً واحتفظت باسمها (القلعة) حتى يومنا هذا .

كانت أهم أسباب سكن هؤلاء الأعراب في ذلك المكان طلب الرزق ، والهرب من تبعات القرارات العشائرية الناتجة من الخصومات والخلافات ،

والتي يبعد فيها أحد طرفي النزاع لمدة من السنين بعيداً عن سكنه كإجراء يخفف وطأة الخصم ويهيئه لقبول عودته بعد انتهاء تلك المدة ، أو الهرب من الثارات خشية التعرّض للقتل تحقيقاً للثأر الذي أخذه على عاتقه ابن المقتول ، أو أحد أقربائه ، أو أحد أفراد عشيرته ، فتميزوا بالبداوة أول الأمر حتى هجّنتهم أشجار الحمضيات والنخيل في بساتين الهويدر الخضراء جراء العمل فيها كأجراء ، وما نثّته في طباعهم من عطر قداحها ، وحلاوة رطبها ، وفيء أشجارها ، فضلاً عن طيب ساكنيها من أهل هذه القرية الخضراء الذين ضربت بكرمهم الأمثال ، ونقلت لنا بعض الحكايات التي تصل حد التكذيب بها لفرادتها ، وتميزها عمّا يسمع من حكايات في التاريخ والأدب ، فهل سمعت يوماً بتعهد مالك بساتين زوّج أحد العاملين في بستان من بساتينه حارساً ليلياً (ناطور) كلّف زواجه وقتذاك (قبل عام ١٩٦٠م) مئة دينارٍ عراقيٍ [٦] .

من الأسر التي هاجرت إليها قادمة من حمرين [٧] ألبو مفرج من عشيرة العبيد فاستوطنت (دلتاوة) [٨] ، ثم انتقل البعض منهم إليها هرباً من الطاعون الذي فتك بهم ذلك الحين ، وتركوا أبناء عمومتهم العَبَليَّة يكابدون هذا الوحش الكاسر . كان الشيخ ماجد الطيار رئيساً لألبو مفرج ، وكان درويشاً صاحب طريقة مرتبطاً بتكية العُبيد المفرجية القريبة من مقام الشيخ عبدالقادر الجيلاني (الگيلاني) بالكاف الفارسية ، وكان يتردد عليها بانتظام .

تميّزت شخصية الشيخ ماجد الطيار بالهيبة والتأثير في قبيلة العُبيد ، إذ كانوا يعتقدون بأنّه من أولياء الله وصاحب بركات ، وتبعاً لذلك كانوا يؤثرونه أعز ما يملكونه نيلاً لرضاه ، وكسباً لمودته ، وتقرباً لله من خلال الهدايا والعطايا التي كانت تقدّم له .

كانت قوافل النوق المحملة بحصة الشيخ من حصاد الأراضي الزراعية لأبناء عمومته ومحاسبيه القادمة من كركوك ، وحمرين تأتي للقلعة لتفرغ حمولتها في داره بعد أن يقع هؤلاء أرضاً لتقبيل يديه ، وحتى نعليه !.

توسع تأثير هذا الشيخ وفاحت هيبته ونال احترام ساكني القلعة ، ثم امتد إلى الهويدر ، والقرى المجاورة لها ليأسر تعلق الناس لما يمنحهم من الشفاء ، ويمتعهم بما ينسب له من الكرامات والخرافات بلسان الشائعات ، وكثيراً ما كانت النسوة من خارج القلعة يصحبن أطفالهن المرضى ليقفن في باب داره عسى أن يمنّ عليهن بصدى بركاته ، فيقرأ ما يتيسر من حفظه لبعض الآيات من القرآن الكريم واضعاً يده على رؤوس هؤلاء الأطفال حتى يشفيهم مما علق بهم من بعض الأوجاع ، والأمراض ليختم تلك القراءات ببصاق هواء ساكن ينسال من فمه إلى فم الطفل ليرتفع بعدها دعاء الأمهات له مع ما يصحبه من نحيب ودموع حائرة ، وحدقات جامدة آملة حيرى متضرعة خاشعة لله الذي أودع سره في هذا الولي الصالح الذي يغادرهم قاطباً جبينه ... معتمراً كوفيته البيضاء ... راكباً العربة التي تسمرت بانتظار فتحه المبين .

عمل معظم أقرباء الشيخ ماجد الطيار بمهنة الزراعة ، والبستنة التي تعلموا أسرارها بعدما سكنوا القلعة ، وجاوروا ناس الهويدر التي تضم خيرة بساتين ديالى ، وبعد مدة من الزمن خبر هؤلاء حرفة البستنة والزراعة ، فنقلوها إلى بعض المناطق التي رغب ملاكها إنشاء البساتين فيها ، ودارت الأيام حتى عمل هؤلاء عند أحد الملاكين ممن ينحدر من عشيرة الدفافعة ، فنالوا لقبهم الذي سرى عليهم إلى يومنا هذا .

كبر أبناء الشيخ ماجد الطيار ، في الوقت الذي أصبح هو عجوزاً ، فثقلت قدماه ، وأفل ضوء حيويته ، فرحل مغادراً الدنيا ، ورحل معه زهده

وطريقته وطقوسه ، ولم يرث منها أي أحد من ولده ، أو أقربائه ، بل تعلّم جميعهم التعليم في المدارس ، وأكمل البعض منهم مراحل معتد بها ، ولفّهم جلباب التمدن والتحضر ، وهوت أفئدة فكرهم الشيوعية التي قدح أوراها هناك محمد الدفاعي في بكور العقد الرابع من القرن العشرين ، لينقل جذوتها فيما بعد إلى الهويدر التي أنس بدفئها معظم شبابها ورجالاتها.

كان الطريق الذي يربط الهويدر ببعقوبا حتى مطلع العقد الخامس من القرن الماضي يمر بالقلعة ليطل على وادي ديالى ، وظلّ هذا الطريق الذي يسلكه أهالي الهويدر وصولاً إلى بعقوبا ماراً بمحاذاتها ، عابقاً بعطر القداح الذي تنثه أشجار البرتقال والليمون المنتشرة في بساتينها ، ونسائم نهر ديالى ، وفيء نخيلها الباسق ، وسماه الناس درب البساتين .

في نهار يوم لم تشرق الشمس فيه ؛ لأنّ الغيوم قد حجبت نورها ، كأنها بدأت بإعلان أمر هام سيجري في الساعات القادمة ، فبرز النهر لينشب جرفها العالي حسداً لحسنه ، وجماله ، وعلوّه ، فأكل النهر جرفه ليمزق صورة القلعة التي أزعجته لسنين طويلة . التي شيدها وسكنها ذلك المستعمر اللئيم ، فأغرق ما اقتطعه من هذه الصورة في مائه الهادئ مصطحباً معها بعض أوصال ذلك الطريق القريب من هذا الجرف لتغرقه أمواج النهر الرتيبة بهدوء لئيم ، وراح تبعاً لهذا الانهيار ذلك الطريق الخلاب.

وهن عظم القلعة واشتعلت في خضرتها الصفرةً ، فبادرت البلدية بتحويل مسار الطريق ليشق بعض بساتين القرية ، بتعويض مالي مجزٍ كسب رضا مالكيها وتم تعبيده ليأمن من النهر الذي أطلق عليه ناس القرية بـ (ديالى الحيالة) ، فقد اعتاد هذا النهر في تعرّج سيره التهام بعض ضفافه عندما يمتلئ بالماء الذي يسرع جريانه ، فيضيف بعض ما يلتهمه من التراب ليلفظه إلى

الجهة المقابلة ، ولذا تعارف عند الناس وقتئذٍ أن كلّ جرف يقابله شاطئ فسيح ، ولن تجد جرفين متقابلين على خدي هذا النهر ليختص بهذه الميزة من دون الأنهار .

من هنا جاءت التسمية لهذه المنطقة وشاعت ولاتزال الى يومنا هذا حتى منحها هذا الاسم تميّزاً ، وشخصيةً مستقلةً عن أُمّها الهويدر. في محطات الزمن السائرة بسكون وقلق كان الأعراب يأتون هذه القلعة من عدة مناطق ليستوطنوا فيها ، فأطلق أهالي الهويدر وبعقوبا عليها (عرب الهويدر) .

الهويدر الخضراء ... ولّادة الأُكْفَاء

ما خلا بنو شيبان وبعض الأسر الأخرى كانت أسر الهويدر من الأسر الفقيرة ، وأغلب هؤلاء يعملون في بساتين لهم ، بخلاف الحاج عدنان السارة والحاج جواد شحاذة كانا يديران شؤون بساتين غازي الداغستاني والحاج فخري جميل زادة لأسر تسكن بغداد يقوم بمتابعتها والاشراف عليها بنو شيبان ، وكان لعبدالحميد الشيباني [٩] ديوان يعمر بالمجلس الليلي اليومي راعٍ لشؤون القرية ، ومصالح ناسها ، وكان يحاسب المتجاوزين على حقوق الآخرين بفرض بعض العقوبات عليهم ، وطالما كان يساعد الفقراء والمحتاجين ، وتمتع بسطوة واحترام كبيرين أعطت له فسحة كبيرة من اتخاذ القرارات المتنوعة .

في بواكير المدنيّة والتطور في العراق سجلت الهويدر حضورها ، ورفرف جناح نبوغ شخصياتها في أكثر من محورٍ دينيٍّ ، وعلميّ ، ومهنيّ . نسج فيها رجالاتها فسيفساء مواقع متقدمة في مراكز متنوعة داخل العراق وخارجه ، ولسان حال مستوى تقدّمهم ينشد أغنية الوفاء للقرية التي أنجبت مثل هؤلاء .

فقد شغل ثلاثة رجال منها ثلاث حقائب وزارية في عهود حكم متنوعة ، فشغل وزارة الإعمار ، ووزارة التخطيط في عهد الزعيم عبدالكريم قاسم الدكتور طلعت الشيباني [١٠] ، وشغل وزارة التربية عبدالحميد كاظم السامرائي ، وشغل وزارة الداخلية في حكومة البعثيين سعدون شاكر من أبناء القلعة ، ، كما رأس الدليميان الأستاذان الدكتوران هشام عطا شحاذة ، وعباس فاضل جواد جامعة ديالى ، وشغل مدير عام حسابات وزارة الصحة الأستاذ الدكتور جواد خليل رشيد الخفاجي ، ونال عضوية المجلس البلدي

لبعقوبا مبكراً الحاج صالح أفندي ابن الحاج مهدي بن سعد والد عبدالهادي أفندي ، وعم عبدالحميد وعبدالرزاق ابنا رشيد أفندي[١١] ، فضلاً عن الأطباء والطبيبات ، كالدكتور رفعت الحاج علي الشيباني ، وعزيز إسماعيل الشيباني المغترب في ولاية هيوستن الأمريكية ، وجعفر صادق شحاذة ، وخالد عبداللطيف ، والسيد محمدعلي ناجي الهاشمي ، وفؤاد غيدان البياتي ، وعامر كامل أنور الشيباني ، وعلي موسى التميمي ، وسرمد جواد شحاذة الدليمي ، والعلوية بشرى السيد ناجي الهاشمي ، وخالد حسون الدليمي ، وبثينة خطاب عمر الخزرجي ، وعلي حسين الدليمي ، وصبا عبدالجبار محمود ، ورفل طارق أحمد الدفاعي ، ومصطفى مازن المجمعي ، وياسر عبدالحميد عبدالأمير ، ورواء صادق عباس الخفاجي ، ومرتضى الهاشمي ، وأحمد عارف التميمي، وأحمد حقي إسماعيل الخفاجي ، وأساتذة جامعيون مثل الأستاذ الدكتور علي عباس الخزرجي والأستاذ الدكتور علي شوكت والدكتور عبدالكريم محمود ، وعبدالحسين علي الخفاجي ، وعبدالحسين أحمد الخفاجي ، وعادل عباس ذياب العبيدي ، وسعد محمد علي شحاذة ، وخالد جعفر مبارك ، ووسام جليل سبع ، وعلي جعفر الربيعي ، وإنعام إسماعيل الشيباني ، والقاضي حسين سالم العنبكي ، وبعض المدراء العامين كالمحامي محمد جعفر الشيباني الذي شغل منصب قائمقام لأكثر من قضاء ، والأستاذ عبدالكريم جعفر الربيعي الذي شغل منصب مدير عام تربية ديالى ، وخيرة من الضباط كاللواء الركن رائد عبدعلي إبراهيم ، والعميد عبدالأمير قاسم الخزرجي ، والعقيد الركن جاسم محمد عبدالرسول ، والعقيد محمود خالد الطائي ، والعقيد عبداللطيف كاظم السلطان الكرخي ، والعقيد ساجد هاشم الخزرجي ، والعقيد حيدر عبدالكريم عبدالرسول ، والعقيد الطيار علي باقي حمد العنبكي ، والعقيد باسم فاضل مصطفى الخزعلي ، والرائد سلام محمد

عبدالرسول ، والنقيب عباس عبدعلي إبراهيم ، ورجال الدين كالحاج محمد صالح الشيباني ، والملا شاكر ، والشيخ عبدالرزاق عبدالرسول ، والشيخ علي حسين ، والشيخ محمد علي مكي ، والسيد عقيل عبود محمد ، والشيخ مصطفى عباس الخزرجي ، والشيخ علاء عبدالرسول كاظم الكرخي ، والمهندسين كالمهندس قاسم عبدالأمير سبع العبيدي ، و جواد كاظم سليم ، ومحمد عباس ، وعبدالحميد عبدالأمير الربيعي ، وسيف محمد سلمان ، ولؤي مبارك ، والتجار كالحاج حسون عبدالغني حمزة الشيباني ، والحاج عدنان مهدي السارة العنزي ، والحاج عبدالرزاق عبدالحميد الشيباني ، ورجال الأعمال كالحاج محمد أمين ، والحاج صادق عباس الخفاجي ، والحاج سعدون عبدالرزاق الربيعي ، والحاج حسين ناصر صاحب محلات الأمير ، والحاج علي عدنان الخزرجي ، والحاج حسين عبدالرضا الربيعي ، والأستاذ حيدر عبداللطيف الشيباني صاحب عراق مول ، والأستاذ لواء عبدالعظيم الشيباني صاحب مول النخبة ، والقانونيين كالمحامي حازم عبدعلي ، ومكي الحاج خضير العنبكي ، وأحمد خلف الخياط ، وميامي إسماعيل غني الحمداني ، ووفرة وافرة من المدرسين والمدرسات ، والمعلمين والمعلمات ، والنجارين كالأُوصطة [١٢] محمد البياتي ، والحدادين كالسيد زيد عبدعلي الهاشمي ، والبنائين كالأُصطوات الحاج جاسم محمد كليلة ، وقاسم أحمد مظلوم الكروي ، وفيروز عبدعلي حمزة الدليمي . والخياطين كالحاج خضير أحمد عبيد الخزعلي ، والحاج فاضل مصطفى الخزعلي ، وحسين محمد المعموري . والمصورين ومن أشهرهم كاظم الكرم المشهور بأبي جواد ، وعبدالزهرة عباس ، وفاضل جاسم العنبكي ، وناجي جاسم الحمداني ، والشعراء ومن أشهرهم الشاعر علي حسين مبارك الشهير بعلي الهوائي ، وأكرم الشيباني ، والحاج علي فارس ، وعبود عبدالكريم الشهير بابن الحجية [١٣] ، وأحمد حسين

البياتي[١٤] ، وصباح حميد السعيد ، وفراس يوسف الشيباني ، والموعودان جاسم وليد جاسم العنبكي ، وغزوان عباس فاضل الخزعلي . والبُستانيين ومن أشهرهم الحاج عبدالحسين علوان الشهير بعبود الذي حصد المركز الأول لمهرجان الحمضيات في محافظة ديالى طيلة سنوات إقامته ، وكوفئ بعشرين دونماً على كتف نهر ديالى المواجه لقرية شفته .

فكانت الولادة

شاءت الأقدار أن تنتقل ولادة الدفّاعي من كركوك عبر دلتاوه إلى القلعة في الهويدر الخضراء . هناك قرب النهر ... نهر ديالى الهادئ بطبعه ما خلا بعض فوراته التي أحدثت أكثر من فيضان . فقد رمق بعينيه الخضراوين هذه الفورات ، وعاش قساوتها في شبابه المفتول نشاطاً وأدباً جمّاً .

في عام ١٨٧٥م قرّر جده علي الرحيل من كركوك إلى دلتاوه ، ومكث فيها سنتين تزوج فيها ، ورزق عدة أطفال من البنين والبنات . بيد أنّ الطاعون فتك بهم ولم يبق سوى حسين، فولى هارباً من هذا البلاء تاركاً وراءه دلتاوه ليأوي إلى الهويدر ويعتصم فيها . مكث فيها حزةً ، ثم لقي حتفه وترك حسيناً ذا القامة المتوسطة الطول ببشرةٍ سمراء ، وشعر أشقر ، ووجه مليح تزيّنه عينان خضراوان يكاد سنا ضوئه يخلب القلوب ، ويستلب النفوس والألباب . تزوج حسين ثلاث مرات رزق من الأولى علوان عام ١٨٩٥م ، وعباس عام ١٩١٠م ، ومن الثانية بنت واحدة اسمها فضيلة أصبحت فيما بعد عقيلة رحيم الطيار ، ورزق من الثالثة محمد عام ١٩١٩م ، وأحمد ١٩٢٢م ، إلى جانب ثلاث بنيات هنّ نورية وبدرية وحمدية ، هؤلاء الخمسة أشقاء من أم واحدة تدعى كيفية تنفسوا ولادتهم قرب النهر .

اقترن اسم كيفية باسم والدة الزعيم عبدالكريم قاسم رحمه الله التي تحمل هذا الاسم أيضاً ... يبدو أنّ مشتركات عدة تجمع بين هذين الشخصيتين فهما :

- ❖ يشتركان بنفس الاسم لوالدتهما .
- ❖ يتقاربان في الشكل من حيث الطول والأكتاف العريضة ، والصدر العريض الواسع، فضلاً عن لون البشرة الأسمر أو القمحي، والرقبة

العريضة المتوسطة الشكل ، والشعر الخفيف بين الحاجبين، والرموش الكثيفة والطويلة ، والقوة الجسدية والشخصية.

- ❖ يجمعهما التمرد على الواقع المرير ، وطلب التغيير له ، والقضاء على الإقطاعية ، وتحرير العمال والفلاحين من ربقة أَسْرِهِم ، ومصادرة جهودهم.
- ❖ كانا من أبناء الطبقات الاجتماعية غير المؤثرة ، ولم يكونا من الذين ولدوا في كنف الرغد والمكانة .

أعطت صفة الطول للدفاعي ميزات أفادته كثيراً في مسيرته الاجتماعية والنضالية ، فطول القامة يعطي ميزة أساسية لصاحبه ، فالأشخاص الأطول قامةً هم الأكثر نجاحاً وصحةً ، والأطول عمراً من الأشخاص قصيري القامة ، والطويل النحيف يميل إلى الحساسية ، ونشاط الذهن ، ويقظة ضمير، بردود أفعالٍ سريعةٍ ، متحفظ من الناحية الاجتماعية ، يغالي جداً في التميز عند اختيار الأصدقاء ، حتى كاد أن يوصم بالتميز الطبقي.

منحت الصلة الوثيقة بوالده حسين مع العائلة التي كانت تسكن أطراف قرية بهرز المنحدرة من عشيرة الدفاعية لقب الدفاعي الذي ظل ملازماً له ولولده وأحفاده إلى يومنا هذا على الرغم من أنّهم مفرجيو النسب العشائري ، إذ كان معارفه من الهويدر إذا سألوا حسيناً : أين كنت ؟ أين ذاهب ؟ تأتيهم إجابته المعهودة : عند مضايف الدفاعي .

في السنة الثانية لولادة محمد الدفاعي شارك والده حسين في ثورة العشرين لتنشأ في ظلال هذه الوطنية نبعته محمد الذي كان تتمة أشرقت منها

الوطنية التي لازمته طول عمره ، ولم تلوي عنانها أذرع السلطات الحاكمة ، وعسلان أجهزتها القمعية .

دخل المدرسة الابتدائية في قرية الهويدر التي أُسست قبل ولادته بسنتين في موقعها الأول قرب جامع القرية ، ثم كان موقعها الحالي في ذات سنة ولادته ليشهد عام ١٩١٩م ولادة مدرستين تمثلت الثانية بالرجل الذي أزهر قرب النهر. كان تلميذاً نابهاً ومتفوقاً ومحباً للتعلّم ، وفضلاً عن تعلّمه في المدرسة كان يحفظ السور القصار من القرآن الكريم على يد الشيخ ماجد الطيار مع بعض الصبية ، وكان يرتل القرآن بصوت شجي ميّزه عن أقرانه وقتذاك. توقف تعليمه الابتدائي عند الصف الرابع ؛ لأنّ الغلبة كانت لشظف العيش ، والعوز في ذلك الزمان القاسي .

لقد عاش في صباه وفتوته بشقاء وحرمان ولازمت بيته وحياته الحاجة . لقد منحته هذه الحالة درساً عملياً بليغاً أثرت بإيجابية في تشكيل مضامين سلوكه الاجتماعي ومنطلقه الفكري وتركيبته النفسية ، فكانت العدالة واجتثاث الفقر عنوانها . تركت ظروف عيشه وبيئته الزمكانية وأجواء علاقاتها وصراعاتها الطبقية تلك ظلالها عليه وبدأ يتقرب روحياً ونفسياً أكثر فأكثر صوب الاصلاح والتغيير.

نشأ وترعرع بحدقتين ترقب ما يجري في واقعه الاجتماعي والسياسي في قريةٍ يسيطر على مقاليد أمورها بنو شيبان الذين تملكوا أكثر بساتينها ، وكان جدهم عبدالحميد الشيباني رحمه الله يمتلك مضيفاً يمارس فيه دوره الاجتماعي من طريق بسط يده ، وطالما أمر بعقوبات متنوعة بحق من يسيء للآخرين ويتعدى على حقوقهم على وفق ما يراه وما يحمله من ثقافة ، ونزعة تتصل بانفراد آل شيبان في الهيمنة المادية والمعنوية على هذه القرية . في عامه الثالث عشر ، أو الخامس عشر ، أو السابع عشر أزهرت نواة

الحزب الشيوعي العراقي لأول مرة في العراق ، ففاح عطرها لينسل إلى فلك البلاد شيئاً فشيئاً ، ولاسيما في وسطه وجنوبه.

لقد عصف العالم التغيير الحاد بعد الحرب العالمية الأولى ، لم يبق شيئ سلم من هذا التغيير ، حتى طال محمد الدفاعي نفسه ، ولاسيما في الحياة المدنية التي عاشها في أول شبابه فاستهوته المساواتية الاجتماعية ، والتحرر ، والعلمانية التي تدفقت من أرض الشيوعية ... هناك من القوقاز لتمد أجنحتها شرقاً وغرباً ، وكان للعراق منها نصيب كبير . تقاطعت المرويات بشأن بذرة الشيوعية في قريته الهويدر الخضراء ، إذ تقول الرواية أنّه انتمى للحزب الشيوعي عندما كان سجيناً بتهمة السرقة ووافق في السجن لقاءه لفريد سمعان ورحيم عجينة اللذين كانا ضمن مجموعة سياسية معتقلة بتهمة الشيوعية والترويج لها ، فهوت نفسه ومال قلبه لهذا الحزب وما يحمله من احتضان للطبقات العاملة والفلاحية ، ومقارعته للظلم والإقطاعية . في حين تقول الرواية الثانية أنّه اعتنق الفكر الشيوعي من طريق اللقاءات المتكررة في بستان طارق الطيار التي كانت تعج بالوافدين إليها من بغداد وبعقوبا من أساتذة ومثقفين من الرجال والنساء فسال لعاب رغبته ، وعشقت شآبيب قلبه ذلك الحزب الذي كانوا يتغنون به ، وبأمجاده ، وأهدافه على أنغام حوارات ، وحوارات ، وحفلات راقصة بريئة براءة الأطفال .

ذات يوم سأله شاب أسمر فارع الطول عن حقيقة انتمائه للحزب الشيوعي العراقي ؟ وهل كان هو الباذر لبذرته في قرية الهويدر ؟

قال مجيباً وسحب الآهات واضح المعالم في عينيه : على وجه الدقة ، فإنني ومنذ صغري كنت رافضاً للكثير من المتسالمات عند الناس ، ومنها التركيبة الطبقية للمجتمع ، والاستغلال الفاضح لجهود العاملين من الفلاحين والعمال ، وعندما كنت أمارس حفظ البعض من سور القرآن ، حتى تميزت

بتلاوته . كنت أتلمس التقاطع الكبير بين مضامين الآيات وسلوكيات أدعياء التدين ، فمالت نفسي صوب البديل !. ومن طريق البحث والاستماع لبرامج سياسية تذاع من الراديو ، ومطالعة ما يتيسر من مجلات ، وتواصل مع شخصيات تتبنى الفكر اليساري اتخذت الشيوعية منهجاً لي وفكراً أعتنقه وأتبناه وأدعو له .

لكنك لم تحدد لي بالدقة أي الروايتين أصح ، أو أقرب للواقع ؟

لنقل كلاهما صحيحتان . ما الخطر في ذلك ؟ هكذا رد عليه ، وأضاف له : إلا ترى أنّ الرواية الثانية أقل ثباتاً في مواجهة التحليل والتقويم ؛ لأنّ طارق الطيار أصغر مني سناً ، وانتماءه كان بعد انتمائي بعشر سنين تقريباً . هناك مسألة أخرى أيضاً ، فالسيد عبود الهاشمي ، وجاسم عبادة العنبكي و كانوا شيوعيين قبلنا . حتى أنّ السيد عبود نال القسط الأوفر من التعذيب في أقبية ، وسجون البعث .

ضحك الشاب الفارع الطول بالسحنة السمراء وقال : الآن عرفت حقيقة الأمر . الرواية الأولى هي أقرب مع ما أضفت لها من توضيح ، ويؤيد ذلك ما سجلته من كسبٍ واسع لشخصيات كثيرة داخل وخارج الهويدر ، ومن هذه الشخصيات الأستاذ عدنان هاشم ، والأستاذ ثابت سعيد ، والأستاذ جاسم كسارة ، والأستاذ ثامر الشيخ داوود الذي طالما سمعت مقولته الشهيرة ((**نحن فخورون بأننا تلامذة محمد الدفاعي**)) ، وأكاد أجزم أن طارق الطيار أحد هؤلاء الذين سجلوا الانتماء للحزب الشيوعي العراقي على يديكم .

ما أن وطأت قدما عام ١٩٤٥م ، وبلوغ محمد الدفاعي السابعة والعشرين من عمره ، وتلمسه اهتمام الحزب الشيوعي العراقي بالفكر التحرري الذي عدّه الحزب أساً متيناً من أسسه ، فضلاً عن أثره في الثقافة

العراقية ، وما كان يرشح من صدى الحلقات الماركسية التي تبلور وشاع من جذوتها تنظيمات الحزب لاحقاً . زج الدفاعي نفسه في أتون هذا الحزب بعنفوانه وصلابته وجلده وحسم ترنح صراعاته الداخلية ، ومعترك هموم وطن كانت تثقل أحاسيسه آناء الليل وأطراف النهار.

عُرِف محمد بكونه رجلاً منظراً ، ومفكراً يبحث في حركة المفاهيم ، والنظريات ، وسريان مفعول أواليتها (ميكانيزماتها) وسنن تطورها ، ومدى تطابقها مع الواقع المادي الملموس . وكان رجلاً عملياً في تصوراته ، وواقعياً في ممارساته ، وقد ألزمه منطق منطلقه هذا حدود الاختيار الصعب في البلد الأصعب ، والمتتوئم والمتزامن مع ظروفه وتعقيداته ، وتركيبته الاجتماعية وتعدديتها ، فتعمق هذا الجانب واكتست سماته من واقع حياته في مطلع شبابه واحتكاكه بالمتغيرات الحياتية التي مزّقت شرنقة خيوط السكون الاجتماعي والنمط التقليدي للحياة السائدة وقتذاك .

كان من الناحية الموضوعية نتاج البيئة العراقية عامة ، والهويدرية على وجه الخصوص ، وروح زمانها، وتمحوراتها وتقلباتها وتطوراتها ، المشبعة بقيمها الاجتماعية والنفسية ، بسلبياتها وإيجابياتها . لكنه تمرد على أكثر قيودها ، ونجح نجاحاً باهراً في العوم بثقةٍ كبيرةٍ وسط أمواج الفقر والحاجة ، فتنوع تبعاً لذلك خط سيره المهني ، فتارةً يعمل فلاحاً أجيراً ، وأخرى صاحب مقهى يبيع فيه الكبة مع ما يقدم من الشاي العراقي المعروف بنكهته ، ثم صاحب محلٍ لبيع المستلزمات البيتية ، وموظفاً له في تسويق وترويج جريدة الحزب الشيوعي الموسومة **بطريق الشعب** ، وما يصحبها من مجلات بين الفينة والأخرى متحدياً قبضة الأجهزة القمعية الحديدية . وتاجراً في الساعات اليدوية ذي الماركات الشهيرة ، ومروجاً بيع الملابس المستعملة من البدلات

الرجالية ، ولاسيما الجاكيتات منها ، والتي كانت تشتهر بتسمية ((اللانكستر)) .

في صغري وعندما كنت أمر من أمام المحل الذي يعمل فيه متوجهاً إلى مدرستي ، أو عائداً منها كان يلفت نظري بطوله الممشوق الفارع ، وكان رأرأ العين الخضراوين . لم أعرف كنه هذه الحدقات ورقصاتها المستمرة ، ولم أكن أعرف حتى اسمه .

يوماً ما في تلك الطفولة البريئة سمعت أمي تقول داعية الله بالويل والثبور لمحمد الدفاعي ، وعندما سألتها عن ذلك : أجابتني قائلةً : هذا الرجل كسر رقاب الكثير من الناس ومنهم خالك رضا !!؟؟ صعب على إدراكي في حينها تقبل هذا الوصف ؛ لأنني كنت أرى خالي بأحسن حالاً شكلاً ومضموناً . سألته مرة وأنا أرتجف : لماذا كسر رقبتك محمد الدفاعي ؟ رمقني بنظرة تعجب وحيرة مع ظلال من الغضب : من قال لك هذا ؟ قلت له بعدما بان ارتجافي وخوفي : سمعت أمي تدعو عليه وسألتها لماذا فقالت لي ذلك . ابتسم وقال لي : أمك واهمة وعلى نيتها ، ومن شدة خوفها عليّ تتصور أن هذا الرجل يسبب الأذى لي . بيد أنّه ليس كذلك وعندما تكبر سآخذك إليه لتتعرف عليه وتتلمس إنسانيته وحبه للناس . لا أدري لم أزاحت كلمات خالي كل ما سمعته من أمي وقتذاك وأنا في سن العاشرة من السنين .

قبل زواجه كان كثيراً ما يذهب إلى بعقوبا . كانت واجباته الحزبية ، والاجتماعية ، ومصالحه الشخصية من أسباب هذه الزيارات المتتالية لها . يوماً ما رمق ملاكاً يكنس عتبة الدار . كأنّ قلبه هوى ، وأضلاعه اندكت ، وعصفت به حمى صهرت وجوده . انتبه والملاك قد اختفى . سأل نفسه : ترى هل أنا في حلم أم علم ؟ أيوجد مثل هذا الجمال ؟

بعد عدة مشاهدات لهذا الملاك الذي أسر فؤاده استطاع أن يلملم مكوناته ليبحر في عشق خرافي تتلاطم أمواجه في كيانه . هو لا يدري ماذا يفعل فيما لم يكن بالحسبان ؟ في زحمة مشاغله وعدم استعداده ، بل ولا تفكيره بالزواج . كيف وجد نفسه أسيراً هكذا ؟

أحياناً ينسى نفسه عندما يمر من طريق هذا الملاك فينشد بصوته الشدي بهدوء العاشق الخجلان :

يا من جميع المحاســـــــن حزت وانتبها ❁ ❁ ❁

سكران بمحبتك مـــا فـــــــز وانتبها ❁ ❁ ❁

لا يجوجك للدجى مصبـــــاح وانتبها ❁ ❁ ❁

دمعي طفه نار مصباحك لوحدي وبس ❁ ❁ ❁

آني صحت يا لهيب النـــــاريزي وبس ❁ ❁ ❁

احرگ جميع الجسد ثم الجوارح وبس ❁ ❁ ❁

واحذر على مهجـتي لتذوب وانتبها[١٥] ❁ ❁ ❁

كلما مرت الأيام ولواعج الدفاعي وأشواقه يزداد شهيقها وزفيرها ، ولم يجد بداً من تخفيف حمى سؤرتها غير التغني بما يحفظ لعلها تسمع صوته الكرواني ، وتحس بما يجول في خاطره .

ذات يوم وهو ينشد ماراً بالقرب من بابهم رمق خيالاً خلف ستار الباب . حدّثه قلبه أنها هي ، لم يصدق نفسه أول الأمر . مرّ بخطى ثقيلة مبتعداً عن دارها . بيد أنّ أقدامه أصبحت عصية على الاستمرار بالبعاد ، فعاد من جديد ماراً من قرب باب دارها فسمعته ينشد :

تمنيت أحومي على شوفك بس أروحن ورِدْ ❁ ❁ ❁

وابغي وصـالك وروم امن المراشف ورِدْ ❁ ❁ ❁

مفروض ذچرك عليّه ابكل فريضة وورِدْ ❁ ❁ ❁

من حيث بسمك تتم افروضنه والدعه ❁ ❁ ❁

رضوان حسن الحواري ابوجنتك ودعه ❁ ❁ ❁

الورد جدّم لوايح واشتجه ودعـــــه ❁ ❁ ❁

ويگول انته الورد جاليش تشتم الورد [١٦] ❁ ❁ ❁

سِمات وشمائل

(١)

يتفق العقلاء على طول الزمن وحفرياته أنّ الحياة هي المألوف ، والموت هو الاستثناء . بيد أنّ هذا الرجل استطاع في سلوكه أن يقلب هذه المعادلة فعاش مألوفية الموت واستثنائية الحياة . كان قلبه يستحم في ضوء من الحقائق الساطعة . روى شاب بعقوبي ينحدر من شرق العراق . من مندلي تحديداً : في اللقاءات التي التقيت بها مع هذه الشخصية التي كان إعجابي بها يتدرج طردياً كلما مر وقت في هذه اللقاءات ، ومن أبرز السمات التي شاهدتها فيه عدم اكتراثه بما يدور حوله من ترقب حدقات ذئاب الأجهزة الأمنية في وقت عصيب كان يمر به الشيوعيون ، وعلى الرغم من أنّ هذه اللقاءات كانت في نادي نقابة المعلمين بشكل علني كنت أرقب ثباته ، ورباطة جأشه ، فأبهرني في جلده ، وسخريته بكل هذه الهالة من الخوف والهلع وقتذاك ، وعندما أسبح في استذكار مواقف من هم أقل شأنية منه فيما يقومون به من أدوار سياسية ، أو أنشطة مشاكسة لقبضة النظام الحديدي البعثي أجد أنّ هذا الرجل يعد استثناءً قل نظيره . حتى أنني سألته ذات مرةٍ وأنا أتحسس اقتراب منتصف الليل ونحن جالسون نحتسي الخمر. كيف ستذهب للبيت وأنت لا تملك سيارة ، أو واسطة نقل أخرى والوقت تأخر كثيراً ؟

رمقني بعينيه الخضراوين ساخراً مني فقال : كيف تكون ماركسياً وأنت تسأل هذا السؤال ؟ قلت له : والمعنى بعدما زادت حيرتي ؟

فقال : أذهب مشياً .

قلت له مستغرباً أكثر : الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً ، وأنت مرصود ومطلوب ، ولربما تمنح فرصة ذهبية لعناصر الأمن في التخلص منك ، أو القبض عليك في جنح الظلام في أخاديد هذه الطريق الذي أخذت منه البساتين الحصة الكبرى ؟

ابتسم في وجهي وكأنه يقول لي : لا تغرك نظريات الطب النفسي التي تقول : أن الجهاز العصبي للإنسان ينهار إذا تعرّض إلى ضغوط حادة ، أو رعب لستة أشهر متواصلة ، فأيّها مما نتعرض له من سنين وها أنذا أمامك لا أقيم وزناً لكل هذه الزمجرة القمعية !!.

في جوابه الواثق يؤكد حقيقة أنّ الإنسان الذي يتعرّض إلى تكرار المواقف المثيرة للخوف والمتنوعة في حدّتها وتطوّرها ... يصبح هذا الإنسان غير مبال بالخطر ، ويتعطّل لديه نشاط الهرمون الخاص بانفعال الخوف ، والغريب أنّ المتسالم عليه في مثل هذه الحالات التي يستمر العيش معها من هذا الإنسان تعطل لديه نشاطات هرمونات انفعالات الحب والفرح وتتبلّد فيه انفعالات المشاركة الوجدانية . لكن هذا الرجل بوثاقته ، وجلده ، وإصراره ، وعزمه ، وقناعته بما كان يعتقد ، ويطمح ويتمنى استطاع أن يسبح عكس تيار الحقائق والنظريات النفسية ، فكان سوياً في سلوكه ومشاعره .

فقد أكّد شجاعته وعدم اكتراثه بما يجري من رصدٍ لتحركات المعارضين للسلطة الكثير ممن عاش بالقرب منه ، كان الحاج سعدون عبدالرزاق الربيعي معجباً بشخصيته ، وكثيراً ما كان يسهب في مدحه ، واعجابه بشخصيته ، وذكائه ونجاحه الباهر في المهن المتعددة التي زاولها ، ولاسيما في استئجاره للباص الخشبي العائد لهم منهم في تجارته بالمحاصيل الزراعية بين ديالى وبعض المحافظات .

لم يتوقف إزاء ما كان معروف من أنّ أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي للمدة من (١٩٥٥- ١٩٦٣) كانوا من عائلات أسياد ، يعيشون في بحبوحة ينمازون بها عمّا كان يؤمن به فيما ورد في أدبيات الحزب ، وهذه المفارقة لابد وأن تترك بعض الأثر في هذا الوثوق ، والجلد ، والعزم ، والإصرار الذي اشتهر به .

(٢)

كأنه تمثل بما نظمه أبو نواس ، فصار بعضاً مما نظمه أبو نواس في كرمه وجوده مع الأهل والأصدقاء والأقرباء ، والرفاق والخلان .

ولا تسق المُدامَ فتىً لئيماً فلستُ أحِلَّ هدي للئيم

لأنَّ الكرمَ من كرمِ وجودٍ وماءُ الكرمِ للرجل الكريمِ [١٧]

كانت صبية من البنين والبنات تذهب لنهر ديالى حباً به ، وبالسباحة فيه على مقربة من دار الدفاعي حيث تكون المشرعة ، وغالباً ما يعود هؤلاء قبل الظهيرة توافقاً مع عودته من بستان الدباديب التي عمل فيها طويلاً . ينظر إليهم بحب وحنين ، ويخرج فاتحاً ذراعيه مرحباً بهم ، وهم يجرون أقدامهم صعوداً نحوه ، والبسمة والخجل صارتا معلماً لهم ، وينادي بصوته عالياً صوب سنية تلك الرفيقة الشامخة : هيئي الطعام للأبطال والورود العطرة .

لم ينفع زوغان البعض من هؤلاء الصبية ، فذراعاه أسبق من أقدامهم في إكرامهم بما لذّ وطاب من يدي السيدة شلغيم الطيبة .

خرج محمد الدقّاعي إلى باحة الدار قبل موعد الغداء . تمايلت سعفات النخيل المطلة على النهر ، وهبت نسائم طريّة مشبعة برائحة البرتقال ، فتح الباب الذي يطل على النهر فشاهد تقدم علي ذلك الصبي المفعم بالنشاط ، وقليلٍ من السمنة ، والخدود المنتفخة صاعداً منحدر الشريعة يتبعه مجموعة من البنات والبنين من صبية القلعة . بعد أن نالوا قسطاً وافراً من السباحة في نهر ديالى ، وحاول علي الزوغان من ذراعي محمد الدفاعي حياءً . بيد أن يدي محمد المتوهجة حناناً وحباً حالت دون ذلك ، فاقتادهم لذلك الغذاء الشهي من يدي السيدة شلغيم المشهورة بفنها وخبرتها في الطبيخ .

أكل وشرب الصبية على أنغام مداعبات الدفاعي وزوجه شلغيم ، وحثهما لهؤلاء الصبية بتناول الطعام من غير استحياء فأنتم مثل أولادنا . هكذا كانت تتردد هذه العبارة مع البسمة التي لا تفارقهما ، وبعد الانتهاء من هذه الوليمة صحبهم الدفاعي إلى باب الدار وبقي يرقبهم راكضين نحو منازلهم المتفرقة في القلعة اطمئناناً عليهم ، وحباً لهم .

(٣)

ذات يوم لمح شاباً شيوعياً عنيداً من أسرة فقيرة مكسور الهمة ، كأنّ الهموم قيدت أنفاسه ، مراراً حاول أن يجد حلاً لما أرَّقه ، ولكن ما في اليد من حيلة ، فمن ذا الذي يقرضه مبلغاً من المال لحل مشكلته .

طمع في أن يفاتح بعض الميسورين في القرية ، وهم قلة لا يتجاوز عددهم أصابع كفه . الوقت يمر سريعاً كسحب الشتاء المتدافعة بعواصف الرياح الهائجة . ضاقت به السبل ، وتحول العالم إلى كرة صغيرة ، كالتي يلهوبها الأطفال عند لعبهم . هو لا يعلم لماذا سلك طريق البساتين هرباً من عصيان هذه المشكلة عن الحل . كان يمشي بخطى سلحفاة ضريرة يتنفس عطر نعناع الماء [١٨] المنتشر على ضفتي نهر العناب لعلها تخفف وطأة آهاته ، وحيرته عصيّة الانفراج . من بعيد رمقه الدفاعي ، وعرفه ، فبادره من فوره : ما بك يا رِضَيَوْ [١٩] ؟ تلعثم الشاب المتطلع نحو الآفاق بجلد وصبر وعنفوان الرفاق ، وتجمعت الدموع في عينيه كغيوم ممطرة ، التقت عيناه وجهاً أفتر عن ابتسامة أراد أن يبدّد عنها يأس غامض ، كأنّ عينيه الخضراوين نافذتان تطلّان على عوالم تزخر بالنور والصفاء والحرية .

خجلاً تناثرت الكلمات من ذلك الشاب فقال له : صدر أمر توظيفي في وزارة التخطيط ، ولكن اليد قصيرة ، ولا أملك حتى أجرة النقل !.

كعادته ابتسم الدفاعي وعيناه تمطران عتباً يدغدغ مشاعر ذلك الشاب السومري الطلعة وقال : طيب لنجر اتفاقاً بيننا حلاً لهذه المشكلة ؟ ما هو خبرني من لطفك ، فالمشكلة هذه أَرّقتني كثيراً .

سأسلفك مصروفك طيلة المدة التي تباشر فيها وظيفتك ، وعندما تقبض مرتبك الشهري سدد لي ما بذمتك بالتدريج .

طار فرحاً وتدفقت الفرحة والبسمة من حمرة وجنتيه قائلاً : لن أنسى جميلك هذا أبداً ما حييت . إنك لرجل مفضال .

(٤)

حار ناجي بزواجه الثاني ، والفقر والعوز قيدا كل الحلول التي فكرّ بها . لا يدري ماذا يفعل والمسألة باتت ضرباً من الخيال ، وأصبح أكلةً سائغةً للعجز وفقدان الأمل .

مرت الأيام ، وكل يوم عدّ بسنة جدب وقحط بلحاظ ما سدّ من أبواب بوجه هذا الناجي أبا حسين ، فماذا يفعل وهو في منتصف الطريق ، بل في أوله ، والحل أبعد من الحلم . شاء القدر أن يطرق مسامعه صوت الدفاعي سائلاً عن أحواله : خبرني يا ناجي أين صار مشروع زواجك الثاني ، فلقد طال الوقت ولم نفرح به ؟

يا أبا قاسم ضاقت بي السبل ، فما هو بحوزتي لا يكفي للمهر ، والمشكلة أين سنسكن ، حتى لو استدنت مبلغ المهر ؟

كعادته أغدقه ببسمته ونث عليه الاطمئنان والسلام قائلاً : المسألة محلولة . تسكن عندي في غرفة ستفرغ لك ولزوجك ، وغرفة العرس هديتي لكما .

ما هذا يا أبا قاسم ولم تكلف نفسك كل هذا ؟ وما ذنبك أنت في التخفيف عن كاهلي ؟

ما هذا الكلام يا أبا حسين ؟ ألسنا أهل وأبناء ولاية واحدة ؟ أشرع في خطاك وليطمئن قلبك ، سوف أجري اللازم كلمح البصر .

مرت أيام وغرفة العرس جاهزة لاستقبال هذه الزيجة المباركة . مضت عدة شهور في ضيافة الدفاعي حتى فرّج الله عن ناجي وزوجه الجديد إلى سكنٍ آخر مستصحبين غرفة العرس هدية الدفاعي الثمينة .

(٥)

بعد تناولهما للإفطار على نسائم النهر جارهم المؤنس رغم جنونه أحياناً .
سألته سنية : محمد أنت تسلف الناس المال باستمرار ، فلماذا لا تسجل ذلك للتوثيق ؟
بعد نفسٍ طويل تلفه الآهات والهموم قال : هؤلاء الناس ، ونحن منهم طبعاً حرموا حقهم في العيش الكريم جرّاء أنظمة حكم رجعية . تسرق قوتهم وخيرات بلدهم . ماذا أحدثك عن بلد الرافدين . بلد السواد كما وصفه المؤرخون لخضرة أرضه الدائمة ، وعذب دجلته وفراته .
قد لا تصدقين إن قلت لك أنني أحياناً أشعر بالحرج عندما أسلف أحداً مبلغاً من المال ؛ لأنني أكره ذلك السؤال مرتسماً على تلك الوجود الطيبة من هذه القرية .
قالت : أنا أتحسس هذا واعتصر ألماً له صدقني ، ولكنني أنظر بالعين الأخرى لأبنائنا ، وسيف القدر لازال خارج غمده ، والحقوق حقوق كما تعلم .
نعم . نعم . لا تقلقي هؤلاء يسيرون بمسيرة والدهم ويرضعون حنان وحب والدتهم . قبل أيام عاد قاسم بعد خروجه للعمل في أعمال البناء بعد سويعة ، وعندها سألته : ما الخبر ألم تجد فرصة عمل هذا اليوم ، فأنا أعلم بأنك من الأيدي الماهرة والمرغوبة في العمل عند البنائين ؟
قال والفرحة تغمره : عندما اختارني الأُوصطة ، ولم يختر صديقي محمد قاسم لكثرة الأيدي العاملة . رجوته أن يستبدلني بمحمد ووافق على ذلك فعدت كما تراني يا أبي .

ولماذا صنعت هذا يا ولدي ؟ سألته وأنا أعلم إجابته ، فقال : يا أبي أنت تعلم بأنّ عائلة محمد قاسم فقيرة ، وهو أحوج مني للحصول على المال فقدّمته على نفسي ، وغداً يكون دوري ز ألم تعلمنا الإيثار يا أبي ؟

قاسم وأخوته سلكوا درب الخير والسلام والمحبة والإيثار ، فلا تقلقي يا روحي.

(٦)

دخل الرجل الثمل بچراويته[٢٠] ، وسترته المعلقة على كتفه الأيسر ماشياً يتعثر من شدة ثمالته . كانت عيناه تتوهج غضباً شاخصةً صوب محمد الدفاعي الذي كان يجلس وحلقة من الشباب تصغي لحديثه الشيق عن الاقتصاد والرأسمالية ، والتسلط والاستعمار ، والرجعية .

بين الفينة والفينة الأخرى يشزر ذلك الثمل الدفاعي ، بل زاد على ذلك بعض الكلمات النابية من الشتم والسب ، والدفاعي لا يبالي لهذا المتطفل الثمل ، بل يبادله بعض الابتسامات التي لم تفلح في إطفاء نار غلواء هذا الرجل العنيد بباطله وظلمه .

أكثر من مرةٍ طلب منه جلسائه ردع ذلك الثمل . بيد أنّ محمد يرفض ذلك بضرس قاطع ، ويقول : دعوه فالرجل مخمور ، ولا يدري ماذا يصنع ، ثم ما يصدر منه عبارة عن سباب وشتم ، فإما أن نرد عليه بالمثل ، وهذا لا يناسب حالنا ونحن ندعي إصلاح الناس والمجتمع ، أو نتجاوز تلك الكلمات ونصفح عنه ، وإن تطلب الأمر نعاتبه في وقت آخر عندما يكون بوعيه .

مرّ الوقت ثقيلاً على فاضل حسين أبي عباس ، ذلك الرجل المربوع بالوجه المشرب بالحمرة ، والعينين الواسعتين ، والشاربين المفتولين ، والذي يتأبط حزامه الجلدي القهوائي خنجراً حاداً بغمدٍ مرصع بالفضة . لم يتمكن هذا الرجل من كظم غيظه جرّاء ما يشاهده من تجاوز وتطاول من الرجل الثمل على محمد الدفاعي ، فأخذته الحميّة ونهض من مكانه متجهاً صوب الرجل الثمل ليصفعه كفاً أوقعه على الأرض ، ثم قام بسحله إلى خارج المقهى مع كلمات إهانةٍ وتوبيخٍ لما صدر منه من سلوكٍ شائن بحق هذا العلم الدفاعي .

سارع محمد لاحقاً بهما ، ومتوسلاً أبا عباس أن يتركه ؛ لأنّ وعيه غائب عنه ، وهو قادر على فعل ما فعله . بيد أنّه يأبى ذلك قائلاً : الشجاعة تكمن في إصلاح سلوك الناس قبل معاقبتهم ، وما جدوى العقاب إذا لم تتغير القناعات والنوايا ؟

اعتذر أبو عباس تاركاً الرجل الثمل على الأرض منكسراً مهاناً ودلف راجعاً إلى مكان جلوسه السابق ، وساعد الدفاعي شاتمه وسابّه على النهوض .

(٧)

في عصر يوم الجمعة من شهر نيسان لعام ١٩٧٦م كان يتناول الشاي والجبن المالح والخبز الحار في وسط داره المفتوح تحت شجرة التوت الفارهة وأسرته ملتفةً حوله كالسوار . سمع ابنه سلام طرقات على باب الدار يصحبها أصوات لعدة أشخاص ، فانسل من بينهم فاحصاً عنها .

فتح الباب فوجد علاوي الدفاعي وعمه أحمد سلم عليهما ورحب بهما وقال تفضلا أدخلا والدي موجود ومسرور أيضاً .

خبر والدك بأنّ سعدون شاكر سيأتي إليه بعد قليل .

طيب . طيب سأخبره في الحال .

بابا . بابا . سعدون شاكر آتٍ بعد قليل هكذا أخبراني عمو أحمد وعمو علاوي .

تسمرت مقلتا الدفاعي وهو ينظر لولده سلام ، ويبدو أن فكره بدأ يرشح ما قفز فيه من دواعي لهذه الزيارة المفاجئة .

نهض ودخل غرفة الضيوف فوجدها على أحسن حال ، ثم التفت لولده وقال : طيب أنا جاهز لا تشغل بالك اذهب وأكمل عصريتك .

طرق الباب مرة أخرى ، فصاح الدفاعي تفضلوا . تفضلوا

أزاح عنه الستارة المعلقة خلف الباب جانباً فرأى سعدون شاكر ببدلته الرمادية ، وربطة عنق بنفسجية ومعه أحمد وعلاوي . دخلوا جميعاً غرفة الضيوف ، وبعد تناول الشاي وتبادل التحيات . قال سعدون : أبو قاسم لقد اخترتك أن تكون رئيس الجمعيات الفلاحية في العراق ، فأنت فلاح بامتياز وتحمل ثقافة متنوعة ، وشخصية سياسية مؤثرة ، ولذا جئت أخبرك بذلك حتى يصدر أمر تعينك ، فأنت أحق بها من الآخرين .

ابتسم الدفاعي وتوزعت نظراته للجميع ، ثم قال له : وكيف تختارون من كان شيوعياً لأكثر من خمس وعشرين سنة ؟

ابتسم سعدون قائلاً : أنت اليوم مستقل ولا علاقة لك بالحزب الشيوعي ، وتمتع بمؤهلات تجعلنا نختارك من دون غيرك .

ابتسم مرة أخرى الدفاعي قائلاً : أنا آسف لا أستطيع تلبية طلبكم هذا أعذروني .

فغر الذين حضروا اللقاء أفواههم دهشة ، وحملقوا غاضبين لهذا الجواب الساخر بتوقعاتهم . قال سعدون وبالكاد يخفي حنقه الهائج على الدفاعي : ولماذا هذا الأسف ؟ هل لنا أن نعرف الأسباب ؟

الدفاعي وهو يستنشق السيكار بنشوة الزاهد : هي ليست أسباب بقدر ما هو رفض لعدم الرغبة لي بالعمل مع حزب لا أؤمن به ، وبما يتبناه من رؤى وعقائد ، وكوني فلاحاً في قرية صغيرة كالهويدر خير لي من رئيس جمعية الفلاحين في طول العراق .

قاطعه سعدون قائلاً : لكنك ستحصل على امتيازات لا تخطر في بالك . راتب شهري مُغرٍ ، وأموال أخرى ، وإيفادات وسفر خارج العراق ، وسيارات ، وقصر مؤثث ، وعلاقات سياسية واجتماعية متنوعة ، و... و... الخ.

ضحك الدفاعي وقال بوثاقة عالية : تلك أشياء لا تثيرني ، ولا تستهويني البتة . لو كنت واثقاً من أنني سأؤدي رسالة المنصب هذا كما أراه وأتصوره لوافقت من فوري ، لكنني أعرف ، بل أنني على يقين بأنّ من يشغل هذا المناصب ما هو إلاّ بيدق خاسر .

خرج الضيوف يتقدمهم سعدون ويرافقهم محمد الدفاعي لتوديع الوزير وموكبه بالسيارات المرسيدس السوداء ذات الزجاج المعتم سواداً إلى بغداد العاصمة .

(٨)

أبو رعد أب لأسرة بغدادية أصبحت بلا مأوى ، وتلاشت فرصة العمل ، فضاقت الدنيا بهم ، ولا يدري أبو رعد ماذا يصنع ؟ . كانت الساعات تمر بهذه الأسرة كسنوات الجمر والقحط . لا رائحة لأي تباشير أمل في الأفق حتى عرف فهم محمد الدفاعي من طريق سماعه لرفيق له في لقاء عابر في بغداد السلام . وتحديداً في مقهى الزهاوي في شارع الرشيد .

سأل الدفاعي رفيقه عادل : ألا يوجد أقرباء لهذه الأسرة المسكينة ؟

قال عادل والحزن يأسره : بحسب علمي لا أظن هناك من أقربائهم الذين يمكن أن يقدموا لهم المساعدة ، وإلاّ لماذا لم يلجئوا إليهم بدلاً من بقائهم في الساحة القريبة من المحلة ؟

طلب منه الدفاعي مرافقته للذهاب إليهم ، وبعد نصف ساعة وصلا الساحة فتكسر قلب الدفاعي لما شاهده من أسرة تكالب عليها الفقر والعوز والحرمان ، وانقطعت بها السبل ، فكان يتلوّى من الألم ... آلام رهيبة كخناجر تغوص في قلبه تمزّق كبده ، فبادر من فوره بعرضه الذي طارت به فرحاً هذه الأسرة المنكوبة.

قال : ما رأيكم بأن تأتوا معي لتعيشوا في بيتنا ، والسيد أبو رعد يعمل في المقهى التي أديرها ؟

وافقوا على الفور ، لكن أبو رعد سأله : ماذا أعمل ، لا خبرة لي في هذه المصلحة ؟

ابتسم الدفاعي وقال : ستتعلم ، وستقوم ببيع الكبة أيضاً . هيا أرزموا حاجاتكم البسيطة حتى نذهب .

بعد أن وصلوا إلى دار الدفاعي أفرد لهم غرفة كبيرة في داره ، وباشر أبو رعد العمل في المقهى ، وبيع الكبة . مرت الأيام ، والأسابيع ، والشهور ، لكن الدفاعي بدأ يتحسس نقصاً في عائدات بيع الكبة ! . كان يكذب نفسه ، وأحاسيسه تلك ، لكن الحقيقة في الغالب هي الحقيقة ، ولا بد من قبولها وتجرع مرارتها .

انفرد الدفاعي بضيفه أبا رعد وقال له والألم يعتصره : يا ضيفي العزيز . أنا بادرتك بالسكن في داري والعمل في المقهى التي أديرها ، فهل جزائي أن تسرقني ؟ما هكذا شيمة الرجال يا رعد . طأطأ رأسه أبو رعد وخيّم عليه الخجل فخرّ ساكتاً .

قطوف

(١)

شاعر برتقالة ديالى . هكذا لقّب ابن أخته خليل المعاضيدي . أستاذ اللغة العربية وعاشقها . ذات يوم زارهم خاله محمد الدفاعي في بيتهم ، ودار نقاش طويل نتج عن حب كبير من المعاضيدي للحزب الشيوعي العراقي ، وأهدافه ، وأفكاره . اتفقا على لقاءات أخرى يتعمّقان فيها حواراً ومناقشةً .

في أثناء الزيارات التي كان خليل المعاضيدي يقوم بها لبيت خاله . كان يطلع على ما موجود من كتب لينين وماركس وانجلس ، وكثيراً ما كان يسجل ملاحظاته ليناقشها خاله محمد . شيئاً فشيئاً وجد خليل نفسه مغرماً بهذا الحزب العريق ، وما لبث أن طلب الانتماء له من طريق خاله الذي وفّر له القناعة بذلك .

بعدما دخل الحزب الشيوعي العراقي في جبهته مع حزب البعث الحاكم . تفجرت كتابات خليل شعراً ، ونثراً تغنى فيه بأمجاد الحزب ، ونضاله حتى أصبح من الأقلام التي يجب أن تمحى من الوجود في قاموس الأمن السلطوي آنذاك .

بعد انهيار الجبهة بعدة سنوات قضاها المعاضيدي متشرداً ، وخائفاً من مخالب ذئاب الأجهزة القمعية أن تنهشه ، فتوارى عن أنظارها لمدد معينة ، ما بين تغيير أمكنته ، أو رتابة حركته ، وأنشطته ، ولم يشعر بالملل ، أو الكلل قط . بقي على هذا الحال حتى القي القبض عليه ليساق إلى خشبة الإعدام ومشنقتها ، وليلحق بركب شهداء الحزب الذي ضرجوا بدمائهم الزكية حباً بالوطن ، وكفراً بالطغاة والظلمة .

تمتم محمد الدفاعي لزوجته سنية ذات ليلة باردة من شتاء سني السبعينات الأخيرة قائلاً : لا أدري هل كنت على خطئٍ عندما كنت سبباً في انتماء خليل للحزب !؟ ترى لو لم ينتم هل سيكون هذا مصيره ؟

(٢)

في الذكرى الأربعين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي شهد داره في القلعة الاحتفال الأول للحزب . كان احتفالاً بهيجاً شارك فيه مجموعة من الشبيبة من قرية بهرز ، وبعض ضيوف ديالى من بغداد ، ومحافظات أخرى . إلى جانب ثلة من شيوعي القرية منهم مجيد خماس الخزرجي ، والمعلم عبدالحسن أبي زاهد ، ومعلم اللغة الإنكليزية كاظم نزيل القرية منذ سنة تقريباً .

تغنى المحتفلون بأغاني الحزب على أنغام صوت الكمان لعازفه البصير عصام زهدي . كانت الأجواء تصدح بالفرح والابتسام ونشوة الاعتزاز بالنفس .

رقصوا وغنوا وتناولوا كؤوس العصير والخمر ، وأجمل الأطايب وأحلاها . من بين ما تغنى به المحتفلون :

يا ضُوَه اولايتنه

يا ضُوَه اولايتنه ❁ ❁ ❁ ❁ اشعندك خبر
سيّرت نجماتنه وتاه الگمر
واحنه ماهمنه الوكت ❁ ❁ ❁ ❁ ركنه السهر
يا ضُوَه اولايتنه ❁ ❁ ❁ ❁ الليل انگظه
بلجي بجفوف الصبح ساعه رضا
احنه طشّرنه المحبه ابكل كتر
والهوه ابساتين ❁ ❁ ❁ ❁ الدنيه نذر

للغفو عالشوگ بضفاف النهر
واحنه ماهمنه الوكت ركنه السهر
يا ضُوَه اولايتنه ❁ ❁ ❁ ❁ الدنيه زهت
والسنابل من محبته روت
ناغت الگاع ابفرح ليلة عرس
وين ما مالت على خيوط الشمس
والهوه ابكل خصر من عدها انتشر
تهدي للحلوين جفية مهر
واحنه ما همنه الوكت ركنه السهر
يا ضُوَه اولايتنه ❁ ❁ ❁ ❁ اشكبر الهوه
ابسحره كل اثنين جامعهم سوه
يسهر ابعشهم ضوه وحب ودلال
ينشر القداح ❁ ❁ ❁ ❁ ويلالي زلال
وكل سنه ايعيشوها تنعد ابشهر
يا ضُوَه اولايتنه اشعندك خبر
سيّرت نجماتنه وتاه الگمر
واحنه ماهمنه الوكت ركنه السهر

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

اهل الهوه

ياروحي طگي ورد ..

اهل الهوه امكيفين

بانت شواطي الصبح ..

چا بعد شتريدين

ناغي الصبح بالصبح ..

دناينه فرحة عرس

يا روحي لمّي الفرح ..

طشته اخيوط الشمس

فرحتنه دنيه وعمر ..

شلچ بشوغات امس

غني لعيون الصبح ..

چا بعد شتريدين

غنت اطيور الصبح ..

بالحان حب عالضوگ

كل ساعه يخفك جنح ..

ويلم هواهم فوگ

يتغازل اويه النبع ..

ويطش محبه وشوگ

كل السنابل روت ..

مشتاگه للحلوين

يا روحي طگي ورد ..

اهل الهوه امكيفين

الگنطرة ابعيدة

حدر التراجي برد ... والگنطرة ابعيدة

وأمشي وآگول اوصلت ...
والگنطرة ابعيدة

ونكضني مشي الدرب ...
والشوگ هز الكلب ...
والگنطرة ابعيدة

حلمانه برد الصبح ...
رچفت خلاخيلي

يا دفو چمل دفو ...
يا گمر ضويلي

ويا ذهب خيط الشمس طوگين سويلي ...
لايگلي طوگ الذهب والدغش ماريده

وامشي وآگول اوصلت ...
والگنطرة ابعيدة

لا لا يبرد الصبح ...
ما تحمل اجفوني

ازغيره وچواني العشگ ...
واتوسد ازلوفي

هيمه وچحيل الوكت ...
ما لمني نفنوفي

لوذي اعله بعد البعد يا روحي حدر ايده

وامشي واگول اوصلت ...

والگنطرة ابعيدة

وصل شريط تسجيل هذه الاحتفالية إلى مصر الكنانة ، فدهش مستمعوه على ما تضمنه هذا الشريط المسجل من أغانٍ وطنية مجدت الحزب الشيوعي ، والكفاح ضد الاستعمار ، والتحرر ، والحرية ، والمساواة ، وحقوق المرأة .

(٣)

لم يدر سبب حنق أبي ظافر عليه ،وهو من أبناء القلعة ، ومن الشخصيات التي تمتاز بالرزانة والاحترام ، والوجاهة الاجتماعية . هو أدرج في حساباته أنّه يوماً ما سيحل هذا الأمر .

خرج ذات يوم بعد الساعة الحادية عشر صباحاً قاصداً محله في سوق الهويدر عند وصوله مدخل القلعة رمق عبدالوهاب في ملابس العمل ، ولا يدري هل هو ذاهب إلى البستان ؟أم راجع منها ؟ . نادى عليه ولوح بيده حتى يلفت انتباهه . التفت عبدالوهاب وعرف أنّه هو المقصود في إشارة الدفاعي ومناداته ، فتقدما نحو بعضهما البعض ، وتلاقيا متبادلين التحية . كانت تحية محمد الدفاعي مشوبة بالحنان والاشتياق والبراءة خلافاً لتحية عبدالوهاب الباردة الفقيرة .

سأله الدفاعي : إلى أين تروم الذهاب ؟

أبو ظافر : إلى بستان كلش .

هل أستطيع مرافقتك لبعض الوقت ؟

ممكن . ممكن . ما الأمر ؟ خيراً ؟

أريد محادثتك بأمر ما يهمني .

طيب . هلم بنا .

وصلا إلى البستان وجلس بالقرب من النهر الذي يشطرها شطرين ، وعلى خرير الماء جرى لقاء وردي مائز .

الدفاعي : يا أبا ظافر . ثق أنني أحبك وأكن لك المزيد من الاحترام ، لكنني أشعر بأنّك تضمر شيئاً ما نحوي ، ولا أعلمه . هل لك أن تخبرني به لعلي أتوضحه ، ولربما نستطيع حلّه طالما أنّ النوايا حسنة .

أبو ظافر : بصراحة أنا أعلم بأنّك من رجال القلعة الخيرين ، ولكنني صعقت عندما سمعت أنّك ممن حاصر المعلم ناصر في المدرسة الابتدائية التي يديرها الأستاذ كامل أنور الشيباني ، وطرق سمعي أنّك كنت تحمل حبلاً وتروم سحله في الشارع ؛ لأنّه من القوميين !؟

ابتسم الدفاعي وأخفى هماً أحرق أضلاعه لهول ما سمعه من ابن قلعته ، فقال والسيكار يحترق بسرعة لتوالي شربه : وهل تظن أنني أفعل هذا الفعل ، وأنتم تعلمون أنّنا نرسل السلام في سلوكنا ، وأقوالنا ؟ دعني أشرح لك حقيقة الأمر ، وبإمكانك التأكد مما سأذكره لك بالطريقة التي تراها مناسبة يا صديقي .

أنت تعلم بأن الأحداث التي عصفت بالبلاد كردّ فعلٍ لما قام به القوميون من تعدي على الناس ، ولاسيما الشيوعيين منهم كانت غير منضبطة ، ومن الصعب السيطرة عليها ، ومنع الناس الذي ظلموا من الثأر لمظلوميتهم ، ومع ذلك فمن قام بهذا الفعل هو جميل وليس أنا ، وهذا الرجل تهوّر مع مجموعة رافقته لغرض التشفي بما سيصير إليه حال المعلّم ناصر ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع جميل ، ولا حتى من رافقه من النيل من هذا المعلّم المحترم عندنا على الرغم من كونه بالضد مما نعتقده ونراه من موقف سياسي يجب أن يشيع في الوطن . هذه هي القصة كلها ، ولم يسحل أي أحد من قريتنا العزيزة البتة .

قدّح وجه أبو ظافر وفاحت منه بسمة المحبة فعانق الدفاعي ودموع الفرحة خالطت أسفه وخجله لما كان يحمله من ظن سيءٍ لجاره وابن قلعته ، وطلب منه الصفح وهو يقبله .

بادله الدفاعي عناقاً أخوياً ، وبدأ يسرد له مواقف الحزب الشيوعي ومبادئه ، وأهدافه ، وما يحمله من الاحترام والتقدير للناس ... كل الناس .

مرت ساعة كأنها دقائق معدودات انتهت بانضمام أبي ظافر إلى صفوف الحزب الشيوعي العراقي بعدما أمطره الدفاعي وابلاً من الأفكار والمعتقدات ، والأهداف التي يتبناها الحزب .

في سؤر الاضطهاد

(١)

لم تدم شمس الحرية التي أشرقت بدفئها في أرض الرافدين بعد ربوع ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨م ، حتى أن عدد أنامل الكف الواحدة من السنين لم تمنح تلك الشمس إشراقاتها وخيرها ، فقد قذف شباط الأسود صديد دموية القوميين بأساليبهم الوقحة التي كشفت تنور الحقد والكراهية لأبناء الشعب العراقي الذي كان يغلي سماً ودمويةً لكل من لا يكون لهم ذيلاً ، وأمعةً . كانت الحصة الكبرى لهذه المخالب المسمومة قادة الفكر التحرري ورجالته المعروفين ، فحصد الدفاعي الحصة الكبرى من ذلك .

الرياح السود تجوس البلدات ومدن العراق التي تغفو على وجنات دجلة والفرات الغارقة بالظلام ، وقد غاب القمر في محاق المؤامرة ورصاصة الغدر في شارع الرشيد ، وما زاد ذلك الظلام رهبة غيوم الانتقام الكثيفة ، وهي تقطع السماء الكحلية للعراق التموزي ، بسرعة كطائرات عدو لئيم يقصف أناساً عراةً عُزّلاً.

إنّ أسياد القوميين من أعداء الإنسانية الذي زخر تاريخهم عبر القرون بالتسلط والجشع والظلم والاضطهاد للفقراء والمساكين ، وقتلهم الأنبياء والمرسلين ، والذين ما فتيء ولعهم وشغفهم بجمع المال والسلطة همسة زمن ولو لمرة واحدة دجنوا نفراً من نكرات الزمان وسوقوهم مفكرين ، وقادة تاجروا بمصير شعوبهم في الشرق ، والشرق العربي ، فتسمرت غيوم السواد والتخلف في سماء العراق وسوريا ومصر ولبنان . ليس هناك ما هو أخطر من عبيد جياع مشردين استحالوا إلى طغاة خانعين بفعل مستعمر لئيم ،

فاحترفوا عبادة شهواتهم وغرائزهم المجنونة ، ومخاوفهم وهواجسهم الأكثر جنوناً .

كان البناء الموعود ، والتطور المنشود لهؤلاء القرود خطباً ناريةً ، وأحلاماً ورديةً ، منوا بها شرائح المجتمع العراقي ، وجعلوا من بلداته التي كان السواد وشاحاً لها ، وعذب الفواكه وفرةً فيها ، حتى أن نخيلها تجاوز الثلاثين مليوناً بألوان يصعب إحصاؤها ، كالبرحي ، والبربن ، والسُكْري ، والخستاوي ، والتبرزل ، وأصابع العروس ، والدگل ، والمكتوم ، ومهدي الخميّس ، والسِعّادة ، والخضراوي . كان عطر العنبر الخضراوي يفوح من المشخاب ، وسنابل الحنطة والشعير يشع بريقها من كركوك وصلاح الدين ، وحمرة الطماطة المتلألئ في البصرة ، والنجف ، والخالص وخان بني سعد في ديالى ، وسامراء ، وأربيل حتى خلفتها سموم القوميين عصفاً مأكولاً ، وخراباً مأهولاً.

رفعوا شعار محو الأمية ، وسيدوا الأميين فخيم الجهل والأمية الحضارية ، وأدعوا الإصلاح الزراعي فتصحرت البلاد ، وجفت الأنهر وخفق الفؤاد ، وطبلوا للصناعات ، فاستورد العراق كل السلع والبضاعات . هكذا قرروا ، وهكذا فعلوا ، وهكذا قتلوا الحرث والنسل ، ودمروا الخير في البر والبحر ، والسهل والجبل . إنّهم أشرار السياسة ، والفكر القومي البغيض .

ما أسهل على المرء أن يهدم ويدمّر ، وما أيسر أن يجتث شجرة معمّرة من جذورها ، ولكن ما أشقّ البناء ، إنّه يحتاج إلى فكر وتأمّل وتدبّر فالبناء تحكمه قوانين وزراعة الأشجار تحتاج إلى صبر . البناء بصيرة وفكر وتأمل ، والعدم قوة عمياء تتخبط كيف تشاء . إنّها محنة البناة في زمن التداعيات .. في زمن الانهيارات التي لا يوقفها شيء .

لقد اختفت الروح التموزية التي كانت تحرّك التاريخ وتصنع الإنسان ، واستيقظت الغرائز ، لا بل انطلقت مجنونة في زمن انطفأت فيه الشمس ، فإذا ليل العراق ينوء بظلمات بعضها فوق بعض .

(٢)

كانت السماء مرصعة بالنجوم ونسمات باردة وردية تهبّ برفق وتؤدة ، وبدا الصمت ينث ثقله ليغمر بغداد ما خلا عيون تتلصص وتجوب أزقة المدينة الغارقة في السحر . هيمن الصمت على الزمان والمكان ضحى الثامن من شباط الأسود عام ١٩٦٣م ... صمت يشبه السكون قبل هبوب العاصفة ... صمت السكينة قبل نشيج الميازيب في مواسم المطر المجنون ... صمت يجسّد ساعات الحزن الأولى قبل انبجاس الدموع من حدقات الثكلى والأرامل ، والدماء من أجساد الشباب ، وحتى الكهول والأطفال . فقد جاء صوت العذاب والدكتاتورية ... جاء رب العراق الأعلى ... جاء الذي هو وليس غيره هو ، وبدأ مسلسل التيه والعذاب لشعب كان يغفوا على ترانيم زعيم عاش في كوخ بجانب الرصافة ، متناولاً الطعام بـ ((سَفرْطاس)) [٢١] يرسل إليه يومياً بعز وكرامة .

دقت الطبول بقدوم المخلص الفاتح متوشحاً بوشاح المنجزات الخضر ... تأميم النفط ، والتعليم الإلزامي المجاني ، ثم الاصلاح الزراعي ، وبناء المصانع والمعامل ، وحل المسألة الكردية حلاً سلمياً ، وفي خد الوشاح هذا علقت القضية الفلسطينية ... تلك التجارة منذ اغتصابها . علت البسمة حشود السذج والطيبين من الطبقات الفقيرة المسحوقة حالمة بسيل من عطايا وهدايا ستمطرهم سماء وعود الفاتح الجديد . وكما هو المألوف صار بطانةً لهذا الفاتح طبقة الأغنياء والانتهازيين . لم يبق من شرائح المجتمع إلاّ المتدينين ، واليساريين ، والمثقفين المستقلين صخرة صلدة في طريق عربة الفاتح .

أصدر الفاتح تعليماته لذئاب أجهزته القمعية بملاحقة هؤلاء المشاكسين الخونة وزجهم بالسجون التي أعدت من قبل الشركات الأجنبية ، وبأحدث

قذارات التعذيب للمناضليين السياسيين . ((نطق المذياع أخيراً وأثار الرعب والهلع في نفوس الناس ، وارتجفت المدن الآمنة بعد سماعهم صوت هناء العمري وهي تذيع البيان رقم ١٣ الذي يدعو للتبليغ عن الشيوعيين الذين قاوموا الانقلاب لإبادتهم . كان صوتاً متشنجاً محرضاً يعلن هذا القرار على طبول الموت التي كانت تنبعث من الموسيقى الحماسية والأناشيد المصرية المنفعلة ، ولعل العمري كانت فخورة بزعيقها ذاك ، ولعلّه كان أحد انجازاتها المهمة الذي جعل لحيالتها معنى ، مثلما كان أحدهم يفخر بأنّه سلب ساعة سلام عادل حين كان الأخير يلفظ أنفاسه تحت التعذيب في قصر النهاية ، وهو يستعرض معصمه عارضاً ما سلبه أمام أعين الناس . أو كما يفخر أحد الأطباء أنّه عمل في مدة ما من حياته نائباً لجلاد في مسلخ بشري ، وكان يثير الرعب في قلوب الأبرياء ، بدل أن يكون طبيباً محترماً وملاذاً آمناً لهم مقارنةً بطبيب آخر بقي ٧٢ ساعة عند سرير أحد مرضاه لم يغمض حينها جفناً له وهو يحاول جهده ، حتى استقرت حالة المريض ، ليقول بعدها بارتياح : الآن فقط أستطيع أن أنام)) [٢٢] .

بدأ مسلسل عذاب المطاردات والاعتقالات في حياة الدفاعي بعد أن مضى على انتمائه للحزب الشيوعي دزينة ونصف من السنين .

قال رجل الأمن غاضباً : اقبضوا على محمد الدفّاعي لنتخلص من الشيوعية في هذه القرية . هذا الصعلوك الخائن الذي تدفقت بسبب حركاته وسكناته ، وتنظيراته الشيوعية اللعينة ، واستدرج الناس السذج لهذا الحزب العميل .

حدث أحد المستمعين لأوامر سيده متسائلاً : كيف لرجل أن يكون بهذه المواصفات ، وهذه الخطورة ؟ ترى ما الذي يملكه هذا الدفاعي اللعين من تأثير على الناس حتى يكون هكذا ؟

عند ذلك صار الشغل الشاغل لذئاب الأجهزة القمعية القبض على هذا المجرم بالطول الفارع والوجه الأسمر الذي تعلوه عينان خضراوان ، وبدأ قطار الملاحقة والتعقب له ، ولحركاته وسكناته ، وبدأت المداهمات تترى لمنزله والتعرض لأسرته في أكثر من موقف لعين لئيم . في قاموس الجلاد ، ولاسيما الجلاد الموظف من قبل الاستعمار تكاد الرحمة والانسانية أن لا تكون أحدى مفرداته البتة ، وتنحصر جل هذه المفردات بالتعذيب والترويع والدمار والتشريد وزرع الخوف وتوزيع الاهانات شتماً ولكماً . ذلك حالهم الذي صوره الشاعر الرصافي بقوله :

عبيدٌ للأجانب هُم ولكن على أبناءِ جلدتهم أُسودُ (٢٣)

كان هؤلاء ((لا يتورعون عن القيام بأي فعل دنيء ، وحوش ضارية ومجموعات من السفلة والمنحرفين . احساسهم بالفشل والرفض تحول إلى كراهية سوداء وحقد متفجر عبروا عنه بذلك الحماس المتحفز في تعذيب أبناء جلدتهم وسعيهم المتقد من أجل سلب كرامة المعتقلين ، وهم لا يعرفون أنّهم بأفعالهم تلك يفقدون آخر ما تبقى من إنسانيتهم ويسلمون أنفسهم إلى الضياع والهلاك . كل سوط يجلدون به ضحاياهم يتحول إلى سوط يجلد أرواحهم ويحيل دواخلهم إلى أرض بور لا ينبت فيها إلاّ الشؤم والحقد . قد يعذبون الضحية حتى الموت لكنهم يقتلون معها كل منابع الرحمة في قلوبهم ويسدون منافذ النور والفرح في نفوسهم فيصبحون مجرد أشباح بائسة تتخبط في ظلام اليأس يقودها الخوف إلى المزيد من الجريمة والمزيد من الضياع ... كانوا رجالاً شاحبي الوجوه رهيبين يثقل قلوبهم الحقد والكره ، ويحركهم الانتقام ، ومن لا يهلك بسياط حقدهم يهلك جوعاً ويأساً . كانت الابتسامة لا تعرف طريقها إلى تقاسيم وجوههم ، تراهم أبداً عابسين مقطبي الجباه كارهين لكل ما في الحياة من خير بعد أن أوصدوا قلوبهم إزاء كل عاطفة وحب)) (٢٤) .

(٣)

قبل أن ينفلق عمود الفجر .. دخل مسرعاً علاوي الدفاعي بجسمه النحيل المتقوس حافي القدمين من دون أن يطرق باب الدار . سأله الدفاعي والدهشة والغضب تقطران من عينيه الخضراوين : ما الأمر ؟ ما الذي حدا بك لتفزع الصبية وأمهم هكذا !؟

قال علاوي وقد بدت عيناه جمرتين متوقدتين ، والكلمات والتنهدات تتسابق من فمه : أهرب بسرعة رجال الأمن قادمون بكثرة بحثاً عنكم . قيل أنهم عازمون على اعتقال كل الشيوعيين في القرية ، وأولهم أنت . أهرب بسرعة قبل أن يصلوا . أومأ الدفاعي لعلاوي بالعودة تخفيفاً لهول الخبر على أسرته وتطمينه باتخاذ ما يلزم بأسرع وقت . خرج علاوي مسرعاً لئلا يلقي الذئاب القبض عليه متلبساً معونة عميل وخائن !.

اختفى محمد الدفاعي بلمحة بصر بعد وداع خفيف وسريع لزوجه الحنون ماسحاً بكفه على رأس ولده الأكبر قاسم ، ولسان حاله يوصيه بأسرته وأن يحل محل أبيه عند غيابه . علت الفرحة وجه ولده قاسم وفهم وصية والده فقال مودعاً إياه : أبي نحن بخير أذهب ولا تخشى علينا . امتطى الدفاعي الليل وغاب عن الأبصار .

سرعان ما أحاطت ذئاب الأجهزة القمعية بالقرية الأمنة الغافية على خد نهر تامرا ، وامتزج إرهابهم بالليل البهيم ذلك اليوم الشاتي بحثاً عن عصابةٍ رفضت الظلم ، والعبودية ، والتخلف والجهل ، وحنّت وطربت لليسار والتحرر والعلم والتطور .

بين الفينة والأخرى يعلو عويل هذه الذئاب ، وقبل أن يبزغ الفجر الحزين أحصى ذئبهم الكبير عدد المعتقلين قبل أن ينطلقوا بهم إلى غياهب

السجون . فهذا زمن مصنوع من القضبان والسلاسل .. زمن لا يعرف للكلمة حرمتها .. زمن غابت فيها الآيات والمفردات وراء القضبان .. كانوا بعدد أخوة يوسف عليه السلام يتصدرهم عبدالأمير الربيعي الشهير بعبدالأمير التكة ، والمعلم الهادئ فرج إسماعيل زهدي ، والمعلم ثابت سعيد زيدان ، ومحي علوان ، وفاروق هادي الشلال ، ومحمد عبادة ، وهوبي محمود سعيد ، ورزوقي حسن الأحمد ، وصاحب عبدالعباس الذي فصل من الجيش على أثر ذلك ، وخليل جابر ، ورضا حسين الهوبي .

كانت الساعات الأولى لذلك اليوم الحزين ثقيلة وباردة ، وكانت الشمس محاصرة بصقيع من الغيوم ، حتى بدت قرصاً باهتاً لا دفء فيه ولا نور ، وأسر المعتقلين شاحبة وحزينة تجمعت الدموع في عيونها كغيوم ممطرة لا تدري ماذا تفعل ؟ الجيران ، وأكثر بيوتات القرية تتهامس عما جرى في ليلة هذا اليوم الفاجع . قالت نسوة : لكن محمد الدفاعي نجا بأعجوبة . ترى أين أختفى ، فرجال الأمن كانوا في كل مكان ؟ تبرق عيونهم حقداً على الأشياء التي تنبض بالحياة .. على القلوب التي تخفق بالحبّ ، وقلوبهم مقدودة من صخور صمّاء قاسية .

حدقات الأطفال تلمست حزن القرية ، وحيرتها ، وخوفها . بيد أنّهم لم يكن في خلدهم ما جرى من ترويع لاثنتي عشرة أسرة كانت آمنة مطمئنة تتبادل الأحاديث في دورها حتى فتك بها عسلان الأجهزة القمعية واقتادت رعاتهم مع الضرب والشتم والسباب المقذع والاهانات المتعمدة .

بدت القرية في تلك اللحظات ميناءً هجرته النوارس البيضاء . المقاهي كأنها مغلقة هي والحوانيت المتناثرة بالقرب منها . بدا على القرية سكون ينذر بشرر . سأل جليل أبو ستار القهوجي الشهير : اليوم القرية ساكنة ؟ ما الخبر ؟ قال الحاج علي : ألم تسمع ما حصل الليلة الماضية ؟ أومأ برأسه أبو

ستار نافياً علمه بما حصل . قال الحاج علي : الليلة الماضية كبس رجال الأمن بيوتات الشيوعيين واعتقلوا منهم أحد عشر ، لكنهم لم يقبضوا على أهم ما جاؤوا من أجله .

من فوره قال جليل أبو ستار : محمد الدفاعي . هذا لا أظنهم يستطيعون أن يلقوا القبض عليه ، فهو محتاط أمنياً ، وكأنه يعلم الغيب !. وكيف ذلك يا جليل ؟ قال الحاج علي . أجابه قائلاً : هل تذكر عندما واعده قريبه المسؤول في الدولة سعدون شاكر بأن يأخذه معه إلى مديرية الأمن ويسقطوا كل التهم المسجلة ضده ، ويعفى عنه بضمانة هذا الوزير . عندما اشترط عليه محمد الدفاعي أن يأتي بمفرده ليلاً وواعده قرب سيباط[٢٥] رزوقي الجولاغ ، وتسلق الدفاعي سقف السيباط ثم انبطح فوقه في جنح الظلام ليرقب مجيء الوزير . وبعد سويعة جاءت سيارة الوزير ومعها عدة سيارات مدججة بالرجال المسلحين ، فانسل محمد الدفاعي بعد غدر الوزير له إلى بستان أم الچبيرة ، ومن هناك إلى إيران بعد يومين من عناء ووعثاء السفر ، وترك الوزير ورجاله ينتظرون مجيئه ، ويحسب البعض بأنه سيأتي من شارع القلعة ، والأخرون من الطريق الآخر .

قال الحاج علي مبتسماً : تمام . تمام . تذكرت هذه الحادثة ، وكيف جن جنون الوزير وهو يشعر بسخرية محمد الدفاعي منه ومن القوة التي رافقته .

(٤)

تطوعت السيدة فاطمة عقاب للمبيت مع أسرة الدفاعي الفار من ملاحقة ذئاب الأجهزة الأمنية القمعية ولم تبال من قسوة ولؤم هؤلاء الأشرار . كانت خير معين للسيدة سنية شلغيم التي تكابد فراق زوجها الحنون ، ورعاية أسرة كبيرة خلّفها لها ، وهو مصر على ما يتبناه من مبادئ يعتاش على معينها في مواصلة دربه الذي خطه منذ سنين طويلة .

كانت فاطمة تواسي السيدة شلغيم تراها كشمعة تذوي في آخر ليلة شتائية طويلة ، أو كشمعة في أخريات ليل طويل .. كقنديل يرسل آخر حلقات ضوئه الشفاف .. كشمس .. كقمر .. كنجمة قبيل الغروب .. تغدق البنات والبنين من عطفها الحنين يضيء قلبها قنديل أمل باللقاء . طُرق الباب ليلاً وهوت أقدام لئيمة تحمل أجساداً شيطانية يشع من حدقاتها السم الزعاف . قالوا : أين الصعلوك محمد ؟ أين هذا الجبان العميل الخائن ؟ توزع الجميع على أجزاء المنزل الحزين بحثاً عن هذا القلق المزمن ، وبقى أكثرهم غلظةً ولؤماً وشرراً يحدّق في وجوه الأسرة المذعورة ، فرمق السيدة فاطمة وشرر الغضب يتطاير من عينيه كبركان مجنون . من أنت ؟ وماذا تفعلين هنا في هذه الأسرة الخائنة ؟

أنا جارة لهذه الأسرة الطيبة جئت زائرةً لهم ، ومتفقدةً لأحوالهم كما علمتنا أصالتنا الإسلامية والعربية ردت فاطمة عليه وكأنها جبل أشم . يرتجف الصبية منغمسين في جسد السيدة شلغيم التي التحفتهم بجسدها الخائر الحزين ، والهلع أخذ منهم مأخذاً . رجعت الذئاب من بحثها عن الفريسة خائبة مكشرة أنيابها آسفة . قالوا بصوت واحد : لم نعثر عليه . أومأ ذئبهم

الأكبر بالخروج ملتفتاً إلى السيدة فاطمة : لا يحسن لك أن تعاودي زيارة هذا البيت لئلا تعتقلين وترمين بالسجون .

أخفت السيدة سنية شلغيم دموعها وحبست أنينها وآهاتها واصطنعت ابتسامة لأبنائها لتنث عليهم الأمن في ظل ما نشبته مخالب الذئاب التي ولت قبل قليل . قالت لجارتها السيدة فاطمة : يا فاطمة . لم لا تعودي إلى منزلك مع أسرتك ، فنحن بخير كما ترين ؟ قطبت حاجبيها السيدة فاطمة ، وبريق العتب يتوهج من جبينها ووجنتيها الخمريتين ، وأومأت برأسها رافضة لهذا الطلب الخلوق ، ثم قالت : أنا أشعر بالجوع دعيني أعمل شيئاً نأكله أنا وأنتم على أنغام شاي الجمر . عادت البسمة للصبية ، وتناثرت البهجة في أجواء ذلك المنزل ، ما خلا سيدته القلقة على مصير رفيق قلبها وشريك عمرها وحياتها .

السيدة شلغيم توزعت بين بعلها وبنيها ، كانت روحها ترفرف بحثاً عن ذلك الزوج الحنين . تتمنى أن ترى شبحه إن كان يمتنع رؤية شخصه . تنتابها غصة الألم . هي متفقة معه في كل ما يحمله من هموم ومعتقدات ، وأفكار ، ورؤى ، وفي ذات الوقت مطلوب منها أن تكون كهفاً ، وعشاً للأبناء والبنات . كان الأمل ينبعث في قلبها كالساقية التي ينثال ماؤها على الضفاف ، أو مثل جدول عذب يهب رحيقه الفراشات والأزهار في طريقه . كان قاسم الابن الأكبر يعينها في تخفيف ما ثُقَلَ عليها من ألم الفراق ، ووغز القلق . أحياناً يطمّنها ببعض الكلمات ، وسرعان ما يشعر بأنّه على وهم ، فهو يحاول إسناد جبلٍ بحجر صغير ، ثم يبتسم ويقول لها : لا أدري لم أشعر وكأن والدي يعيش معنا ولا يفارقنا البتة .

(٥)

غيوم كانون تتحشد في السماء ، رسمت خلجاناً وشواطئ وبحيرات زرقاء وربىً وتلالاً من قطن ، وأصبح المشهد السماوي أخاذاً . على استحياء خرجت من منزلها أم مهدي تمشي صوب بيت محمد الدفاعي . فاحت رائحة الأرض المرشوشة بمياه سماوية طاهرة . ما أن سمعت بأن الذئاب ستداهم بيته الليلة وتروع أسرته . تلك الأسرة التي جاورتها لسنين طويلة ، ولم تلحظ منها إلاّ الخير والمحبة والسلام والطمأنينة . لم تكن خائفة ؛ لأنّها تلمّست عطف الجيران ومؤازرتهم لهذه الأسرة . قالت لسنية شلغيم : طبخت اليوم عشاءً على شرفكم سنتناوله سويةً في بيتنا ، فقد طبخت الديك المزركش الذي كانت صيحاته تؤرقكم أحياناً . تعالت ضحكة من خالد الأبن الرابع من الذكور ، وقال : مسكين هذا الديك . كم كنت أحبه ، واليوم سنأكله .

جرى حوار نظرات بين أم مهدي وسنية شلغيم انتهى بإيماءة لسنية أعلنت فيها قبولها لدعوة أم مهدي التي نثت عليها بردة سلام ومحبة وطمأنينة بأن الناس لا زالوا بخير ، فالذئاب التي تبحث عن زوجها لعلّها تثخن جراح اليد التي تمدّ له ، أو لأسرته . على عجلٍ لملمت أسرة الدفّاعي ما تحتجاه لقضاء ليلةٍ عند جارتهم أم مهدي هرباً من عويل تلك الذئاب المحمرة عيونها حنقاً وحقداً وظلماً لهم .

في بيت أم مهدي توزع أبناء الأسرتين بين أطفال بعمر الورد تلعب ، وصبيانٍ تزاحمت على التلفاز ترقب ، وأطلّت فرحة بريئة من العيون التي ترى العالم أخضر بلون الربيع ، وأشرقت ابتسامة تشبه إشراقة عيد الأضحى . انفرد مهدي بقاسم وريث أبيه حياً وميتاً يقضون أوقاتاً جميلة في

أحاديث الشباب والمراهقة في الوقت الذي تتسابق المضيافة مع الضيفة في إعداد الوليمة بالديك المزركش .

كان الغروب في ذلك اليوم سخياً بألوانه الشفافة .. ألوان تشبه البرتقال ، وجمر المواقد الشتائية تكللها زرقة صافية . تناولت الأسرتان وجبة العشاء بالديك المزركش ، ورز العنبر الخضراوي ، ورغيف حنطة الرافدين مع لبن أربيل ، وفاكهة الهويدر اللذيذة . كان عرساً لأسرة شلغيم ، لاسيما الأطفال منهم بعد عشاءات سادها الهدوء والقلق ونظرات حائرة ، وأسئلة صمت كثيرة .

انبثقت نجيمات في الأفق كبراعم فضية ، وقاربت الليلة على الانتصاف ، ونام أغلب أفراد الأسرتين ، وبال المرأتين على الطريق الذي صار موحشاً بعد أن وغزته مخالب الذئاب في بحثها عن طريدةٍ اختفت عن الأنظار بلمحة بصر . يبدو أنّ الذئاب انشغلت في صيد آخر ، لعلّه في الجانب الشمالي في قرية بهرز التي تعج برسل السلام من الشيوعيين ، ولذا ساد الهدوء أجواء تلك الليلة ، فخلدت المرأتان إلى النوم الذي صار حلماً لسنية شلغيم مذ فارق أسرتها رفيق الحياة ، والزوج الحنين ، والتمنيات تعصف بها في عودة أيام خلت ملؤها المحبة وطيب العيش على أنسام نهر تامرا ، ورائحته الزاكية ، لاسيما في ساعات السحر الناعسة .

في ضحى اليوم الثاني عادت أسرة الدفاعي بعد إفطارها الشهي عند أم مهدي إلى دارها الحزين بعد إلحاح طويل بالبقاء لأيام أخرى حتى تولي قطعان الذئاب عن القلعة ، والهويدر الخضراء ، وتزول هذه الغمة ، عن هذه الأمة ، لكن حياء السيدة شلغيم وإباءها ما فتئا يجرجران أقدامها صوب منزلها ، والبسمة تعلو هامتها وإيماءات متعددة تفوح بالعرفان والجميل لصنيع أم مهدي الذي لا ينسى .

(٦)

كان ربعاً مشرباً باللون الخمري ، ووجنات وردية بعينين واسعتين ، وبمقلتين سوداوين ، لافاً الجراوية على رأسه ،ذا هيبة ووقار ، ودماثة أخلاق رفيعة عالية . سأله ضابط التحقيق الذي بدا وجهه القاسي في ضوء المصباح في سجن بعقوبة المركزي كشيطان ، ذلك السجن بالزنزانات التي تشبه كهوفاً مهجورة ، أو قبوراً استيقظ ساكنوها من رقاد طويل : ما اسمك ؟

أجاب والثبات يشع من عينيه السوداوين ، لا تعلو وجهه تلك الصفرة التي تغشى من في قبضة الجلادين : عبدالأمير كاظم جاسم الربيعي .

صرخ الضابط بوجهه مذعوراً ، وقد توقدت عيناه فبدت كجمرتين ، أو كوّتين مفتوحتين على جحيم مستعرة تعلو جسداً من اللحم البارد بلا مشاعر ولا عاطفة ، ولا رحمة في ذلك القلب الذي يشبه كتلة من الرصاص قائلاً : كيف ترضى لنفسك أن تكون عميلاً للاتحاد السوفيتي أيها القذر ؟ سأنزع جلدك ، وجلد ربعك ، وهذا الدفاعي سنلقي القبض عليه ،ونسحقه ، ونقطعه إرباً إرباً . تكلم من مسؤولك ؟ ومن الذين هم بمسؤوليتك؟

قال عبد الأمير: لست شيوعياً ولا علاقة لي بأحد لا من داخل القرية ، أو خارجها ، ولا من خارج وطني الغالي ... عراق الرافدين. سقط فكّ الضابط الأسفل دهشةً .. وظل مبهوتاً وهو يتطلع بعينين مفتوحتين انبهاراً لهذه الوثاقة في النفس لحملٍ أسيرٍ بين مخالب ذئاب مجروحة .

صفعه ذلك الضابط وصرخ على شرطي قريب منه بكلمات مسمومة ملوّثة بالصديد تتدفق من فمه : خذوه وعلقوه ، وأشبعوه ضرباً بالعصي الغليظة ، والكيبلات [٢٦] حتى يعترف ، ثم أخبروني .

في طريقه معصوب العينين ومربوط اليدين بحبل أخذ منه مأخذاً أدخلوه حجرة من حجرات التعذيب وعلقوه من قدميه بحبل غليظ مثبت بكلاب صدئ يتدلى من السقف . تناوشه إسماعيل ذو الطول الفارع مربوع القامة متشنج العضلات . كان قد خلع قميصه وأبقى سرواله الملطخ بدماء الأبرياء ، وبدء ينهال عليه ضرباً ويصب عليه اللعنات ، ويقذفه بالشتائم ، وعبدالأمير يتلوى تحت لسعات العصا الغليظة التي لا ترحم . صرخ به قائلاً : اعترف أفضل لك ، فإذا لم تعترف سأسلخ جلدك يا حقير . سحب خالدُ إسماعيلَ من يده التي تحمل العصا الغليظة ، وقال له : دعه لي فدواؤه عندي . أنا أعرف كيف انتزع اعترافات هذا الصرصر .

قام خالد الوافد من الأرياف الصحراوية القاحلة بتعذيبه بقسوة ، وبوحشية لعدة أيام . كسر عدداً من أضلاعه ، وكان يتركه بعد كل تعذيب في مكان مملوء بالمياه القذرة ، ثم يسحبه إلى السطح ليواجه برد الشتاء القارس عاري الجسد ، لكن الربيعي على الرغم من كل معاناته وآلامه ظل صامتاً ، ولم ينبس ببنت شفة مما كان يحلم به هذا الخالد الوافد . كان جسده قد امتلأ بالقروح ، وأسود جلده ، وبين الفينة والفينة يفقد وعيه فيحمل على بطّانيّة إلى طبيب أقسى قلباً من ذئاب التعذيب ، وكثيراً ما كان هذا الطبيب يقول بعد فحص المعذبين : أوقفوا تعذيبه حتى لا يموت ؛ لأنّ موته لا ينفعنا ، بل يجب أن تنتزع منه المعلومات . كان يفحص عبدالأمير الذي فقد وعيه وأغمي عليه منذ ساعة ، ثم التفت للجلادين إسماعيل وخالد قائلاً : هذا أول شيوعي قاوم تعذيبكم القاسي ولم يتكلم لحد الآن ، ولازال جسده قوياً على الرغم من فقده للوعي . أحسب أنّكم لن تحصلوا على شيء منه .

أخبر خالد ضابط التحقيق بصلابة وعناد عبدالأمير وتحمله لأقسى أنواع التعذيب . حتى أنّه رمي في حديقة المستشفى لعدة أيام من غير جلاد

؛ لأنه لا يقوى على الحركة ، أو النهوض ، فقد مضت تسعة أشهر على تعذيبه من غير طائل .

قال الضابط : هاتوه وقابلوه برفاقه الذين اعترفوا عليه حتى يعرف بأنّنا نعلم عنه ما يظنه غير معلوم . جاؤوا بثلاثة ممن اعترف على كونهم يجتمعون مع رفاق آخرين عند مسؤولهم الحزبي عبدالأمير ، وكانت اعترافاتهم كسيل من الرصاص تدمي بناءه ، وحزمه ، وجلده . سأله الضابط بصوت عال : ما تقول بعد الآن ها هم رفاقك يعترفون باجتماعك بهم في بساتين الهويدر . تكلم . غمرت وجهه غيوم وغيوم ، وتساءل في نفسه ؛ ترى أين صبركم وجلدكم يا أحبتي ! ، وهو ينظر إلى من اعترف بكل شيء ، ثم أشار بالنفي بسبابة يده اليمنى الشاحبة . صرخ ضابط التحقيق به قائلاً : كم أنت لعين ، كل هذا الاعترافات وأنت مصر على الإنكار ، كم أنت عنيد . خذوه إلى السجن قبل أن أفقد أعصابي .

زاره ولده الأكبر عبدالحسين بعد أن تعافى قليلاً ، وبعد أن شاع خبر اعتراف رفاقه ليخبره بذلك ، ويطلب منه الاعتراف حتى يتخلص من هذا التعذيب البشع . رفض بقوة ، وقال له : لو مت ألف مرة لن أتفوه بكلمة واحدة لهؤلاء الذئاب . بعد سنتين من حكمه التي قضاهما في سجن الحلة استطاع أن يوفر (٢٠٠) من الدنانير العراقية مما كان يحوكه ويصنعه من المصنوعات التي غالباً ما تصنع في السجون ، وخرج بعدها ليشتري داراً لأسرته التي كانت لا تملك أي دار في ذلك الوطن العزيز .

(٧)

غيوم الخريف تعبر سماء القرية .. تبعثرها الرياح كسفن تائهة ؛ وأضحت السماء ميداناً لخيول مجنونة ، أو لوحة تتراكم فيها أكوام الغيوم كما تشاء الريح تشكلت بحيرات زرقاء وتلال وخلجان ، وبدت غيمة بيضاء على شكل حصان ترتاد الشواطئ القطنية ، بيد أن الريح سرعان ما دفعتها لتذوب في أكوام الرماد ، اختفت البحيرات وتراكمت جبال السحب الداكنة بعضها فوق بعض ، واندثرت الشواطئ الناصعة تحت أكوام الرماد والرياح الخريفية تبشر بشتاء قارس .

ذاق ذرعاً رجال الأمن بحثاً عن الدفاعي من غير طائل ، كأنه اختفى من الكون . ترى أين ذهب هذا الدفاعي . قفزت فكرة شيطانية إلى ذهن الضابط المسؤول عن حملة اعتقاله ، فسأل نفسه : لماذا لا نعتقل كل أسرته ونجبره على تسليم نفسه إلينا وينتهي الأمر ، وقد انبعثت في أعماقه نشوة تشبه فرحة حفار القبور لدى قدوم جنائز الأطفال !

خرج مسرعاً من غرفته صارخاً بقطيعه من الذئاب : هيا . هيا بنا بسرعة إلى دار الدفاعي . سأله أحدهم : ما الخبر أراك مستبشراً سيدي ؟ أسرعوا وجدت الحل الذي غاب عنا طيلة هذه المدة .

النجوم تتألق في سماء بدت كعباءة عربية غارقة في الكحل ، وفي القلعة هجعت العيون ، وأوت الكائنات إلى مضاجعها فالليل أعشاش دافئة ، ومنازل هادئة ، وعالم تطير في الأرواح تحلّق بعيداً في دنيا شفافة ، تتسلل من ثيابها السفلى ، تخلع أهابها الجسدي لتحلّق في عوالم الذرّ .

ازدحمت في السماء سحب كأكوام من الرماد تتراكم بعضها فوق بعض ، وبدا الجوّ مشحوناً بالغضب . أفاقت أسرة الدفّاعي على صوت خبط للباب

،وأدركت السيدة شلغيم والابن الأكبر قاسم أنّها قبضة شرطي . دخل القطيع والشرر يتطاير من موكبه ، واقتادوا الأسرة على عجل حتى لا يشيع خبر اعتقالهم ، ويتخلصون من تدخل أي أحد متوسلاً بترك النسوة على الأقل من هذا الفعل الشنيع .

مضت أكثر من خمس ساعات وضابط التحقيق ينتظر خبراً عن محمد الدفاعي ، وذهبت أحلامه أدراج الخيبة ، وخشي أن تصل فعلته أسماع قريب للدفاعي كان يعمل في موقع متقدم في الحكومة ، ولعله يرفض ذلك ويعاقبه عقابياً شنيعاً ، فهو قريبهم على كل حال .

دخل أحدهم عليه قائلاً : سيدي لا أظن هذا الدفاعي سيسلم نفسه ؛ لأنه على يقين بأننا سوف لا نطلق سراحهم . أومأ برأسه والحيرة تفوح منه . قضى دقائق معدودة ذهاباً وإياباً داخل غرفته ، ثم قال على مضض : أخرجوا هؤلاء الحثالة وأرجعوهم إلى بيتهم قبل أن ندخل حيص بيص مع .... لم يذكر اسم الوزير أو صفته ، فهو على يقين بأنه يعمل في قطيع ذئبان يأكل بعضها البعض .

عاد الموكب منكسراً ووقف أمام دار الدفاعي ، فنزلت أسرته الواحد تلو الآخر ، وحدقات الجيران ترقب ذلك المنظر ، وقلوب الأحبة طارت فرحاً بعودة بيت من بيوتات القلعة ... عرب الهويدر الخضراء .

جنحت الشمس للمغيب .. رسمت لوحتها الحزينة في السماء كجراح الشهداء ، وشيئاً فشيئاً غادرت حمرة الغروب وامتلأ الأفق رماداً ، وفتحت النجوم عيونها وراحت تنبض في صفحة السماء كقلوب خافتة .

لم تمض الأسابيع حتى مكر الذئاب مجدداً ، فلجأوا إلى الإعلان عن مكافأة نقدية مغرية لمن يعثر عليه حياً أو ميتاً ، ويدلهم عليه . استعانوا بمكبرات الصوت التي دوى صداها في أزقة الهويدر . طال الانتظار ولم يرد

خبر عما توسلوا به . قال كبيرهم الذي علّمهم الغدر : لنذهب إلى البستان التي قيل أنّه يتردد عليها . عوى ذئب من بعيد : أي بستان هذه !؟

رد كبير الذئاب بحنق : تلك البستان اللعينة (الدباديب) . بسرعة جنونية طوقوا البستان الغافية في جنح الظلام ، جبّنهم كبيرهم وجبنوه من اقتحام هذا البستان اللعين خوفاً من الأفاعي ، أو مما لا يحمد عقباه في ظلام الليل . كان الدفاعي ينصت لهمسهم المرتجف من خلف جدار البستان عندما كان مختبئاً بين الأدغال العالية وجلده على زناد شجاعته وإصراره . رجع القطيع خائباً يترقب فرصةً أخرى لافتراس طريدته المتمردة .

(٨)

استمرت مداهمات قطيع الذئاب لدار الدفاعي شهوراً بحثاً عنه ، لعلهم يصطادونه خلسةً عندما يكتويه الحنين لأسرته ، وكانت غاراتهم فاشلة في كل مرة ، حتى ضجر قائد القطيع من هذا الفشل المستمر ، فلجأوا إلى أسلوبهم المعهود من إيذاء أسرته ، وطالما تلقت السيدة شلغيم الإهانات ، والضرب بأقدامهم .

في إحدى هذه الغارات أراد أحدهم أن يدنس شرف هذه العائلة المظلومة الصابرة باغتصاب إحدى بناتهم الجميلة ، وقد برقت في عينيه شهوة كادت أن تفترس مفاتنها ، ولولا تدخل علاوي الدفّاعي ، وذئب لم يرتطم بقعر الحضيض بعد لكان الذي كان ، ولكن القدر كان حليفاً لهذه البنت الجميلة فنجت من مخالب دنس ذلك القطيع من الوحوش البرية بقلوب منحوتة من الصخور الصمّاء .

في يوم من أيام عام ١٩٦٥م وفي غفلة من الزمن ، ومن دون استئذان دخلت مجموعة من ذئاب الأمن وكبست دار الدفاعي بحثاً عنه . الذئاب التي تزداد شراسة وغدراً كلّما تكاثف الليل .

بعثروا أغراض المنزل ، ولم يتركوا شيئاً لم يبعثروه لعلهم يعثرون على مبتغاهم . لمح أحدهم برميلاً في الجانب الغربي من الدار ، فتوجه مسرعاً نحوه رفع الغطاء فوجده ملآن بحبوب الحنطة ، وبدأ يغرس حبات الحنطة المتراصة في هذا البرميل بحربة البندقية التي يحملها ظناً منه أن الدفاعي مختبئٌ فيه . يا للسذاجة ، فكيف يدفن الدفاعي نفسه وسط البُر يا أحمق . حدّث نفسه بذلك ولده قاسم الذي كان يحتضن أخوته المذعورين من هذه الذئاب .

بعد أن تيقنوا خيبة سعيهم هذا ، وقبل أن ينسحب هذا القطيع خالي الوفاض كعادته رفس كبيرهم بطن السيدة شلغيم ليقتل الجنين بعمر خمسة أشهر حنقاً وحقداً على هذه الأسرة ، ومنعاً لزيادة نسلها من المتمردين الذين سيقضون مضاجع أسياده لاحقاً .

لملمت الأم انكسارها ، ودفنت مواجعها على وليدها المرتقب لئلا تخور صلابة وصبر أبنائها ، وكأنّ القدر أخبرها بغارة أخرى قريبة أكثر جوراً وظلماً من سابقاتها . وما أن مضت الأيام حتى عادوا من جديد عند ظهيرة يوم دافئ من أيام آذار ، حيث تتجمع الأسرة مطوقة صينية طعام الغداء من شوربة الكشك الساخنة اللذيذة التي كان القدر بين كفي الوالدة الحنينة قادمةً به صوبهم . تسمرت حدقات الأسرة وتوقفت أنفاسها حالما أمطرهم رعب الذئاب صليل الرعب ، وفي أثناء التفتيش بلا طائل ، أو جدوى رفس كبيرهم قدر الشوربة الساخن ليحرق جسد المرأة التي هزمت هذا القطيع بالغارات المشوبة بالفشل في كل مرة . حتى تهرع نسوة الجيران على صراخها من ألم الاحتراق .

(٩)

قبل أن يغادر عام ١٩٦٥م الحاضر ليأوي هاوياً في ذاكرة التاريخ الزماني ، وفي صباح يوم الاثنين أشرقت الشمس ذلك اليوم حمراء حمراء كعين حمئة ، وقد انقشعت السحب فإذا السماء زرقة صافية كبحر فيروزي اللون . طرق سمع أسرة الدفاعي العفو الصادر عنه من الحكومة !. تفحصوا الخبر ملياً ، وتيقنوا صحته ، فطار فرحهم باحثاً عنه ... عن ذلك الحنان المفقود ... عن محمد الدفاعي الغائب الحاضر . كيف السبيل لاختزال الأحداث بسرعة حتى ينتهي أمر الفراق وتعود المياه تجري في ينبوع المحبة والسلام والطمأنينة .

أوكل الأمر لولده الأكبر قاسم ، وسرعان ما بدأ بالبحث عن والده بهدوء ، ومن غير إثارة لأحد ، فلا زال القلق يدب في تلابيب أنفسهم . القلق من قطعان الذئاب الماكرة . قبل الظهيرة وصل قاسم إلى بستان الدباديب ، وبعد أن تنقل بين أشجار الحمضيات والنخيل الباسق قصد شجرة التوت الكبيرة التي كانت تشرف شامخة على طرف البستان الشرقي شاخصةً صوب بستان المِزْرَعْ ، وما أن وصل جلس متهالكاً وبدا جسمه حطاماً حتى لم تعد له القدرة على النهوض ، يتطلع إلى السماء .. إلى عالم لا نهائي .. عالم مفعم بالصفاء .. عالم بعيد عن ويلات الأرض وما يجري فيها على يد الإنسان ليستريح قليلاً ، ولعل والده يشعر بوجوده ، أو يشم ريحه فيجلبه الحنين . مرت نصف ساعة وقد أصبح رأسه مسرحاً للهواجس وسط أمواج هدوء خيَّم على البستان وضيفها ذلك الشاب الأسمر بالشعر المفتول . بدأ يشعر بألم يشبه سكيناً تغوص ببطء وقسوة في كبده ، وروحه تنزف ،

وبات قلبه عاجزاً عن تحمّل الحياة في عالم يعجّ بالشرور ، فتمثل ببيت شعرٍ للمتنبي الذي حفظه عند سماعه ذات يوم :

مَضَتِ الدُّهُورُ وَما أَتَيْنَ بمثلِهِ ولَقَدْ أتى فَعَجَزْنَ عن نُظَرائِهِ (٢٧)

بعدها تنبه قاسم لأقدام بالقرب منه تتنقل على حذر قادمة من خلف أشجار الرمان التي نهضت كسياج في الجانب الشرقي ، فرفع رأسه ليرى والده قادماً نحوه ، وقد تألفت في سماء عينيه عشرات النجوم . قفز الفتى تخنقه العبرات وتضبّب رؤيته الدموع بسرعة كالمجنون راكضاً نحو الرمز والعنوان ، فاحتضنه كما تحتضن الأوراق برعماً يستقبل الربيع ، وتعانق الولد مع أبيه وانتقل خبر العفو لسماع أبيه تسابقه قبلات الولد البار .

هل ستسلم نفسك يا أبي لهؤلاء ، وتنتهي قصة الفراق التي أدمت قلوبنا . قال قاسم ذلك والدموع تنهمر من عينيه .

نعم يا ولدي . كفكف دموعك فالقادم خير ، وهؤلاء المفلسون لن يستطيعوا ثني إرادة النجباء من محبي الأوطان .

مرت الأيام وانتهت إجراءات العفو وعاد الدفاعي لأسرته خافياً حذره من عودة الذئاب مرة أخرى ، فقلبه لا زال قلقاً ، وكأنّ هناك أمراً دبر بليل .

(١٠)

شهدت الأعوام التي تلت عام ١٩٦٥م بين مد وجزر لحملة الاعتقالات التي كانت تجري للشيوعيين في مختلف أنحاء العراق ، ونال قسماً منها محمد الدفاعي انتهت بسجنه في سجن بعقوبة ، وإحالته في أخرى إلى محكمة الثورة [٢٨] .

ما أن وصل خبر اقتياده إلى محكمة الثورة حتى هرع محبّوه من الأهل والأصدقاء والجيران إلى الحاج شاكر والد سعدون ذلك القيادي في حزب البعث الذي صار وزيراً للداخلية بعد سنين ، وفرّت النسوة والأطفال كطيور هاربة من سفن غرقت في القرار تطلب من هذا الحاج بذل المساعدة لكي ينجو محمد الدفاعي من حكم هذه المحكمة التي عرفت بحكم الاعدام في أكثر القضايا التي تحال إليها . مثل دوامة ما لها من قرار . كانت النسوة والأطفال تدور حول الحاج شاكر ؛ قلوب صغيرة خائفة كحمائم بريّة وسط ريح شتائية عاتية ودموع كلآلئ انفرطت عن نظمها ، تسحّ من عيون تجمّعت فيها غيوم حزينة .

قال الحاج شاكر : إنّ الذي أعرفه عن محمد أنّه رجل مسالم ويكد على عياله ، ويحظى بعلاقات طيبة مع الناس . كيف يساق لهذه المحكمة ؟ ما الذي فعله حتى يحصل له ذلك ؟ انفتحت كوة أمل سرعان من بددها عبوس وجه هذا الحاج الطيب؛ لأنّه غضب قليلاً عندما سمع بأنه شيوعي وتهمته الانتماء لهذا الحزب ، فقال بعفوية : هل الحكومة تحاسب الناس إذا سجلوا في الحزب الشيوعي ؟ هل أنتم متأكدون مما تقولون ؟

أخبره أحدهم ممن كان لبقاً في منطقه قائلاً : إن سياسة الحكومة لا تسمح لغير حزبها العمل في داخل العراق ، وأغلب الناس الذين ينتمون

للأحزاب لا يعلمون بذلك ، لكنهم بعد أن يتورطوا وتعرف بهم الحكومة تتخذ بحقهم الإجراءات ، ولا تنس أن بعض الناس يتهمونهم بشتى التهم ، وهذا الرجل بريء ورجاؤنا أن تضغط على ابنك حتى ينجيه من الموت .

أومأ برأسه الحاج شاكر وأملّهم خيراً ، وبعد عدة أيام أفرج عنه وأفلت من قبضة هذه المحكمة اللعينة ، فعلت الفرحة الأهل والجيران ، والأقرباء والأصدقاء .

صراع القناعات

(١)

في بستان الدباديب اتخذ الدفاعي مكاناً شرقياً مختفياً عن أنظار ذئاب البرية . ما تزال النجوم مسمّرة في السماء كمسامير في لوح كحلي ، وقد بدا الجوّ مشحوناً بالخطر ، ومحمد الدفّاعي ألقى مراسيه في هذه البستان من الهويدر التي تحاصرها قطعان الذئاب .

انفلق الفجر وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وشيئاً فشيئاً لاحت ذرى النخيل تعلوا بساتين البرتقال كمآذن خير وبركة . في ثنايا ذلك الفجر رآه الحاج الطيب وفي عينيه إصراراً وثباتاً أين منه الجبل . إنّه أمام رجل يقرأ صفحات غامضة من المستقبل بل لعلّه يدرك ما يموج في نفسه ، فحياه مبتسماً والقلق واضح على محيا هذا الحاج الطيب . ثم سأله قائلاً : كيف الحال يا أبا قاسم ؟ كيف استطعت أن تنجو من هؤلاء ؟ كانوا بأعداد كثيرة خلافاً لما عهدنا غاراتهم في الأيام التي مضت ؟ هل هناك خطر منكم يخافه هؤلاء بلغ به حد هلعهم واستنفاراهم ، واستفزازهم بهذا الشكل ؟ خبرني من فضلك ؟

صمت محمد الدفاعي طويلاً ، وعلت جبينه مسحة من الحزن متأملاً السماء ، وأشجار الحمضيات ، والنخيل الباسقات ، وقفزت الحوادث الرهيبة إلى الذاكرة .. تجسدت في العيون .. تردّد صداها في القلب . إنّ شيئاً ما يضطرم في أعماقه .. شيء ينبئ عن تمزّق جذور وردة في أعماق تربة طينية . ليس هناك ما هو أكثر مرارة من اجتثاث شجرة من جذورها . قال : لا جديد يا حاجنا الطيب ، فالجماعة ينفذون مخططاً سيدمر الوطن. قل لي بربك : ما جريمة هؤلاء ؟ هل أحصيت لأحدهم ظلماً لأحد ؟ هل أكلوا حق

الناس ، هل تقاعس المعلمون منهم عن أداء واجباتهم على أحسن ما يرام ؟ هل رصد أحد ما كرههم لشعبهم ، أو وطنهم ؟ هل كانوا راغبين بالثأر والانتقام ؟ ألم يكونوا من دعاة السلام ومن محبيه ؟ انهمرت هذه الأسئلة وغيرها كحمم البركان الهائج من فم الدفاعي ، وبريق الغضب يقطر من عينيه .

حار الحاج الطيب وتملكه الصمت ، ولم يقوَ إلاّ بحركة يديه الدالة على لاآت يصرخ بها وجدانه ودماثة خلقه والتزامه ، ثم تمتم محوقلاً ، والأسى يعتصر جسده النحيف .

مرت اللحظات بصعوبة بالغة ، وغضب الدفاعي فرض جواً من السكون القلق . أراد الحاج الطيب أن يخفف الوطأة عنه قائلاً : لا بد أنك ترغب بتناول الشاي ؟ دعنا نتناول قليلاً من الخبز والشاي ما رأيك ؟

أومأ الدفاعي برأسه علامة الرضا ، فرسم البسمة على وجه الحاج الطيب . قال له وهما يتناولان الشاي والخبز : محمد لا تزعل . الحكومة تقول أنّكم تكفرون بالدين المقدس ، والناس لا ترضى بهذا ، فنحن قرية بسيطة ، ولا يوجد أحد فيها لا يؤمن بالمقدسات ، أو يتعرّض لها . سأله الدفاعي : وما هو المقدس برأيك يا حاجنا الطيب ؟ طبعاً هو الدين والإيمان بالله قال الحاج الطيب . ضحك محمد الدفاعي وسأله سؤالاً والغرابة واضحة عليه : ومن ذا من الشيوعيين تعرّض لذلك ؟ وهل سمعت أحداً يدعو للكفر بما تقول ؟ غريب حقاً . طيب هل يمكن أن توضح لي معنى الدين ؟

أومأ الحاج الطيب برأسه والسرور أخذ منه مأخذاً ، ثم قال : الدين ضرورة فطرية يحتاج إليها الإنسان لتربية نفسه روحياً ، وتنظيم سلوكه خلقياً ، وضبط أفعاله اجتماعياً ، وتعيين الحقوق والواجبات العامة في المجتمع الإنساني كله . وإذا الدين فطرة في نفس الإنسان ، فهو جزء من كيانه ووجوده مثل بقية الغرائز التي تتكون منها النفس منذ خلقت البشرية ،

وحتى تقوم الساعة ، كغريزة حب الجنس وحب البقاء والطعام والشراب . إنّ الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وأن الاهتمام الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية ، ومن الثابت تاريخياً أنّ فكرة التدين لم تفارق البشرية ، ولم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة ؛ لأنها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعاً ، لذلك قال بعض العلماء : إنّ الحضارات المادية في التاريخ كان مبعثها الدين ، وأن المجتمع الأوربي الحديث لم يتخل عن الدين ، وأنّ شعار العلمانية الذي رفعته أوربا هو خداع وتضليل ، وأنّ أوربا الحديثة ، وأوربا المعاصرة مجتمعاتها ودولها مجتمعات ودول دينية ، وهي مجتمعات ودول أخذت في الاعتبار منذ قيامها وتكوينها حماية الدين والذود عن المسيحية [٢٩] .

هزّ برأسه محمد الدفاعي وهو يتناول السيكار وبيده الأخرى قدح الشاي قائلاً : تفضل أكمل يا حاجنا أسمعك .

استرسل الحاج الطيب والسرور يطفح من تلابيب وجهه الملائكي قائلاً : يمكن أن الخص ما استدل به علماء الأديان والاجتماع والفلسفة على كون التدين فطرة بالاستقراء والاستنتاج للكشف عن بواعث الدين الفطرية على النحو الآتي :

❖ إنّ نزعة التدين ظهرت من غريزة التطلع إلى الغيب ، ومحاولة معرفة الحقيقة الرابطة وراءه ، وعدم الوقوف عند حدود الواقع الحسي ، والعودة إلى التأمل في المسائل الأزلية : لِمَ خُلق الإنسان ؟ ومن خلقه ؟ ولِمَ خُلق الكون ؟ ومتى ؟ ومن خلقه ؟ وما هو مبدأ الإنسان ؟ وما هي غايته وهدفه ؟ وإلى أين يسير ؟ وما هي نهاية الكون ؟ وما

هو مصير الإنسان ؟ وماذا بعد الموت ؟ . وغير ذلك من الأسئلة التي تدفع الإنسان إلى البحث عن الخالق ، وهذا التطلع والتأمل في هذه القضايا الغيبية كانت ولا زالت وستبقى الشغل الشاغل للإنسان لكي يصل إلى اليقين أمام مشكلات الكـون الكبرى مهما تقدّمت به المدنية وتعددت الاكتشافات وترقى العلم .

❖ العجز في الإنسان وحاجته إلى قوة جبارة تنقذه من المهالك وتعينه وقت الشدّة ، ويستغيث بها وقت الضيق ، فتنجده وتخرجه من المآزق ، وتقدم له العون عند الحاجة ، وهذا العجز موجود في كل نفس ، ويلمسه الإنسان في نفسه ويسمعه من غيره . وهذا المعنى هو ما روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام حيث جاءه رجل وقال له : ما الدليل على الله ولا تذكر لي العالم والعرض والجوهر ، فقال له : هل ركبت البحر ؟ قال : نعم ، قال : فهل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق ؟ قال : نعم ، قال : فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين ؟ قال : نعم ، قال : فهل تتبعت نفسك من ينجيك ؟ قال : نعم ، قال : فإن ذلك هو الله ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[٣٠] . هذا الشعور النفسي بوجود المنقذ من الهلاك ، والمنجي من الهم والغم والحزن والكرب ، إمّا أن يبقى مع الإنسان فيكون مؤمناً ، وإما أن يتنكر له ، ويعرض عنه ، فيكون كافراً به ،

وهذا المعنى أيضاً صوره القرآن الكريم في كثير من آياته ، ومنها قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣١).

❖ ومن دوافع الفطرة إلى التدين الإحساس بالخوف والرهبة أمام هذا الكون العظيم ، وما يجري فيه ، مما يحرك أحاسيس الإنسان ، ويوقظ مداركه ، ويدفع عقله ـ بالغريزة والفطرة ـ ليبحث عن خالق الكون ، فيأنس به ، ويطمئن قلبه عنده ، ويهدأ روعه وخوفه ، ويؤمِّن جانبه ، ويعقد أواصر التقرب له ، ثم يقدم الطاعة والعبادة لعظمته ، وهذا هو الدين .

سأله الدفاعي مستنكراً : لكنك ألغيت دور العقل يا أيها الحاج . إنّ التطور العقلي للإنسان جعله يستعمر الكون ، ويُذَلله ويطوعه كيفما شاء ، فلماذا هذا الاستسلام للغيب ؟

قال الحاج الطيب والسكينة علت جبهته : مع الاعتراف بأنّ العقل يضيء الطريق أمام الإنسان ، ويأخذ بيده في المزلات والمزالق ، إلاّ أنّه قاصر عن مصارعة الغرائز المتفجرة ، وكبح ثورانها . فإنّ كلّ إنسان يعلم من نفسه أنّ غرائزه وميوله الشهوية إذا تفجرت ، لم تترك للعقل ضياءً ، ولا للفكر نوراً ، بل كان مثل العقل حينذاك مثل الإنسان المبصر إذا وقع في مهب الرياح والزوابع الرملية ، فإنّها تكف بصره عن الرؤية وتعرقل مسيرته . وفي تلك الحالات ، لا ينفك العقل عن خداع صاحبه وإراءة المحاسبات الكاذبة لتبرير عمله ، وإيجاد الذرائع لارتكابه ، بحيث لو كان هذا الإنسان في موقف عادي خالٍ عن ذلك الثوران في العواطف والغرائز لما اعتنى بشيء من تلك التسويلات ، ولذلك لا تجد مجرماً يقوم بجناية إلاّ وهو يلقي لنفسه الأعذار والتبريرات حين إقدامه عليها [٣٢].

إنّ مهمة هداية الغريزة والفطرة التي تصنع من الإنسان موجوداً عارفاً بالنظام ، مؤمناً بالمناهج ، مجرياً لها في ليله ونهاره ، وسره وإعلانه ، لا تتمّ إلاّ بيد رسل مبعوثين من جانب خالق البشر ، بمناهج كاملة أنزلها إليهم ، وحفّها بدوافع الطاعة من المغريات بالثواب والمحذورات من العقاب ، ولهذا يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام : فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسي نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم الآيات المقدرة من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفنيهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، ولم يخل تعالى خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجّة قائمة [٣٣].

(٢)

كانت الشمس على وشك المغيب وقد بدت حمراء حمراء كعين تسحّ دموعاً ثقالاً ، ونشر المساء ستائره الرمادية فوق الأرض . مساء ذات اليوم عاد الحاج الطيب إلى بستان الدباديب يحمل معه بعض الأطعمة للدفاعي وعلب السيكار التي طلبها حاملاً معه ما سمعه من أخبار حول ما جرى في ليلة هذا اليوم الثقيل المتلبد بغيوم الحزن والأنين لاثنتي عشرة أسرة من أهالي الهويدر ، فضلاً عما شرخه في مشاعر الأقرباء والأصدقاء والجيران والأحبة .

دلف الحاج الطيب منسلاً من خلف المنازل بمحاذاة نهر العناب ، لينعطف يميناً صوب الدباديب ، فدخل والبسمة تسبقه بحثاً عن ذلك الرجل العنيد . توجس خيفة ، فالدفاعي لا أثر له البتة !. ترى أين حل به الدهر ؟ هل قبضوا عليه !؟ قضى شطراً من الوقت بحثاً عنه بصمت ، وكأن عقارب ساعاته توقفت . جلس خائر القوى تحت شجرة ليمون كبيرة طويلة العمر ، ثم مسك عوداً وبدأ يخط على الأرض أسئلة حائرة مثقلة بقلق هلامي . مرت نص ساعة على أبي عامر وهو على هذا الحال حتى سمع الترحيب من الدفاعي قائلاً : مرحباً بالحاج الطيب .

فزع الحاج الطيب وبان عليه الارتباك والدهشة ، ولم يتمالك نفسه ، ثم قفز سؤاله الذي جرّ معه هموم حيرته وقلقه : أين كنت بحثت عنك في البستان شبراً شبراً ولم أجدك ؟ أين كنت بربك ؟

ضحك الدفاعي وقال آسفاً : كنت متسلقاً شجرة التين القريبة من الليوان [٣٤] خائفاً أترقب ، وما أن اطمأنت نفسي حتى نزلت إليك . تقبل أسفي فهؤلاء لا يردعهم عن الخسة ، والنذالة رادع ،ولا يمنعهم من الغدر ، والخيانة مانع ،ثم سأله : ما الأخبار ؟ وهل جلبت معك السيكار ؟.

قال الحاج الطيب : دعني استرجع قواي أولاً ، وخذ ما جلبته لك من طعام ، وسيكار حتى نكمل حديثنا الذي انتهى قبل بزوغ الشمس هذا اليوم .

بعد تناوله للطعام وشربه للشاي سأل الدفاعي والسيكار بيده ، منتظراً حتفه : لكن الدين تحول إلى مقدسين تتبعهم الناس من غير إعمال للعقل الذي وصفته ، فصار من ينتقد هؤلاء ، أو يبين بعضاً من سلوكياتهم التي تتقاطع مع ما يقوله الدين الذي يعتنقونه يرمى بالفسوق ، والضلال ، والزندقة ، والكفر . فهل يصح ذلك يا حاجنا ؟

قال الحاج الطيب : هناك العديد من المداليل للمقدس ، إلاّ أنّ الأهم بينها ما تعارف عليه الناس من أنّه (التعالي عن النقد) ومعنى ذلك أنّ المقدس في الدائرة الدينية لا يمكن نقده أو إبطال معطياته ، سواء استطعنا وعيه لكنه لم يقنعنا ، أو أننا لم نَعِهِ وندركه إدراكاً عقلانياً من الأول ، فإذا قال النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** ـ مثلا ـ : عليكم إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم ، فهذا أمر قد لا نعي مبرراته ، ولا نفهم طبيعته ، ولهذا لا مجال للحديث عن قناعاتنا بصوابية هذا الوجوب والإلزام أو عدمه ؛ لأنّ المفروض أن المعطيات التي بررت هذا الوجوب لم تتضح لنا بعد ، كي نحكم عليها بأنّها صائبة أو غير صائبة ، وعلى الخط عينه ، أن يخبرنا النبي بأنه رأى العرش ، ولا نعي نحن ما هو العرش وعياً عقلانياً ، ففي هذه الحالات علينا التصديق والتسليم ، هذا ما يجعل النبي **صلى الله عليه وآله وسلم** مقدساً في الدين ، أي أنّه يتعالى في قوله وسلوكه عن النقد ؛ فلا يمكننا نقده حتى لو لم نقتنع قناعة عقلانية بما يقول ، بل قناعتنا تنبع من كونه مقدساً ، ولو لا ذلك لما اقتنعنا ، فضلاً عن كون عقلنا مهما كانت مداركه واسعةً ، وأفقه نيّراً ، إلاّ أنّه يبقى محدوداً ، والمحدود لا يمكن أن يحيط باللامحدود واللامتناهي كما تعلم ذلك أكيداً .

طيب . طيب . لو سلمنا جدلاً بما تقول ، فهل ينسحب هذا على كل رجال الدين ؟ قال ذلك الدفاعي وحاله يسخر من ذلك ، ثم استرسل : هل تعلم أنّ الأكاسرة ملوك الفرس يدعون أنّه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً ، فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، لا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجالسهم ، ويعتقدون أنّ لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأنّ ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنّما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلاّ السمع والطاعة ، وخصوصاً بيتاً معيناً هو (البيت الكياني) فكانوا يعتقدون أنّ لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج ، وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر ... فكانوا يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك لا يبغون به بدلاً ، ولا يريدون عنه محيصاً ، فإذا لم يجدوا في هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم إمرأة ، فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين ، وملكوا فرخ زاد خسرو ابن كسرى وهو طفل ، وملكوا بوران بنت كسرى ، ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً ، أو رئيساً من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما ؛ لأنهم ليسوا من البيت الملكي (٣٥) .

قال الحاج الطيب مبتسماً بعد أن سكب من إبريق الشاي قدحين لهما وقليلاً من السكر : تفضل يا أبا قاسم اشرب الشاي ، فأنت تحب شرب الشاي كما أعلم ، ودعني أوضح لك ما قد لبس عندك من سماعك ، أو تصورك لمسألة التقديس التي يجهلها الكثير من المتدينين .

إنّ ما ذكرته عن الفرس موجود في الديانات الأخرى ، ففي الديانة الهندية قدسوا بوذا ، والديانة المصرية قدسوا ملوك الفراعنة ، وكذا الحال في اليونان والرومان ، وصولاً إلى الديانة المسيحية ، التي ظهرت بشكل جلي في (كتابهم المقدس) ، فالقداسة والتقديس كلمتان مترادفتان عند النصارى ، وهما ترجمة لكلمة واحدة في اللغتين اليونانية والعبرية ، وقد وردت كلمة (مقدس) بمشتقاتها المختلفة أكثر من ستمائة مرة في ذلك الكتاب [٣٦] .

قاطعه الدفاعي متسائلاً : وعندكم في الإسلام ألا يوجد تقديس للأشخاص ؟ أقصد العلماء مثلاً ؟

هزّ الحاج الطيب برأسه بحركة سريعة وتوتر واضح قائلاً : لا . لا أبداً . في الشريعة الإسلامية لا يوجد تقديس لأشخاص ، ولا يوجد نص يأمر بتقديس أشخاص مهما كانوا . نعم ورد أمر الطاعة لأولياء الله سبحانه وتعالى واتباعهم ، إنْ كانوا يأتمرون بأمر الله سبحانه ويشرعون بإذنه ، وقد حذّر من اتباع الأشخاص الذين لم يأمر باتباعهم أو طاعتهم ، فيقول تعالى ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [٣٧] .

إنّ المقدس الوحيد هو الله سبحانه ، فهو المقدس وهو القدوس ، والقرآن العظيم مقدّس ؛ لأنّه كلام الله سبحانه . أما الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام فهم مقدسون أيضاً ، وهذا التقديس الذي يتصل بهم إنما لفكرتهم التي حملوها ، فالتقديس لهم تقديس للمعاني التي دعوا إليها ، وحثوا عليها ، فضلاً عن عصمتهم من الخطأ التي أعطت طابع التقديس والطهارة والنزاهة ، وكل ما تحمل كلمة (مقدس) من معنى ، فالإسلام ليس دين عبادة الشخصية ، أو تقديس الأشخاص .

رد عليه محمد الدفاعي : استشرت في مجتمعنا ظاهرة (تقديس العلماء) مما صرف أذهاننا إلى أنّ هؤلاء العلماء الذين تدار بهم العجلة الفقهية على - وجه الخصوص - والرضوخ عند كلامهم وعدم مناقشتهم في المسائل والاستفتاءات والتسليم الفكري والعملي المطلق لهم . وقد وصل الأمر برجال الدين في كل مجتمع وعقيدة بتبني مشاريع دينية اخترعوها لأنفسهم وسموا أنفسهم بمسميات متنوعة كالبابا والحبر والحاخام والفقيه والإمام وآية الله والمفتي والشيخ والداعية ليصدق بعدها رجل الدين نفسه أنّه ممثل لله في الأرض ، بل وخليفة له ، فتتحول آراؤه الشخصية إلى تشريعات دينية لها قدسية التشريع الإلهي نفسه[٣٨] . وكذلك ((هناك قسم ثالث من مسميات رجل الدين ومصطلحاته المستعارة من القرآن كتمايز خاطئ . لا أعرف إذا كان أحد رجال الدين فكر في الحكمة من استعارته كمصطلح (آية الله) الذي يشمل كل مخلوقات الله ، فضلاً عن الآيات القرآنية المتلوة))[٣٩] .

أومأ برأسه الحاج الطيب والألم يعتصر جسمه النحيل ، فقال : ما تقوله صحيح جداً ؛ لأن تقديس الفقيه نابع من تقديسهم المعصوم بالنسبة للشيعة ، أما بقية المسلمين فهم أخف وطأة في التقديس لرجال الدين ، ما خلا فرقة الوهابية التي هي خارج نطاق الإسلام بإجماع المسلمين ، ولو تتبعت تاريخ هذه الفرقة وملابسات نشوئها لتبينت صدق قولي .

سأله الدفاعي : هل يمكن أن توضح لي الفرق بين الإمام المعصوم كما سميته ،وبين العلماء الموجودين في الوقت الحاضر ، فأنا لا أرى فرقاً في ذلك ؛ لأنّ الناس تطيع وتتبع العلماء كما نسمع ونرى .

أجابه من فوره الحاج الطيب قائلاً : في الحقيقة أنت تعلم بأنّ أغلب الناس هم من الناس البسطاء الذين يطلق عليهم تسمية (العوام) ، وهؤلاء غالباً ما يقدمون آراء العلماء على النصوص الشرعية باعتبار أنّها هي الدين

يقيناً ، وهي ليست كذلك بنص عبارة العلماء في رسائلهم الفقهية ، فلو راجعت أقوال العلماء في تعريف الاجتهاد ستجدها تؤكد على أنّ الاجتهاد بذل الوسع في تحصيل الظن بالحكم الشرعي وليس اليقين .

بان التعجب على وجه الدفاعي فسأله قائلاً : هل لك أن تذكر لي بعضاً من هذه التعريفات حول الاجتهاد ؟

قال الحاج الطيب مومئاً برأسه : نعم . نعم . خذ مثالاً على ذلك التعريفات الآتية :

- ❖ عرّفه العلامة الحلي ت٧٢٦هـ : هو استفراغ الوسع في النظر ، فيما هو من المسائل الظنية الشرعية ، على وجه لا زيادة فيه ... ولأنّ الاجتهاد إنما يفيد الظن[٤٠] .
- ❖ عرّفه المحقق الكركي ت٩٤٠هـ : هو استفراغ الوسع لتحصيل الظن بالحكم الشرعي[٤١] .
- ❖ عرّفه ابن الشهيد الثاني ت١٠١١هـ : هو استفراغ الفقيه وسعه في تحصيل الظن بحكم شرعي[٤٢] .

قال الدفاعي : بصراحة أنا أرى أنّ : ((هذه المسألة بحاجة إلى تفكيك المنظومة الثنائية الإسلامية المتوارثة ، والنظام المعرفي المتوارث ، ووحدات هذا النظام التي أصبح بعضها من الثوابت الثقافية والمذهبية ، فالتقليد الذي يمثل جزءً من هذا النظام على علاقة جوهرية بوعي المجتمع ودوره الديني - الثوري - السياسي ، وهو جزء لم يحظ سوى بإثارات سطحية وملاحظات فوقية ، لا تكشف عن عمق الإشكاليات التي ينطوي عليها في إطار الوعي المجتمعي - المعرفي الديني - وتوالد هذه الإشكاليات مع مرور الزمن وتطور

الحياة ، لا سيما في الدائرة الشيعية التي هي على علاقة مع ثنائية الاجتهاد ـ التقليد ، أكثر من الدائرة السنية التي توقفت فيها حركة الاجتهاد بصورة ليست إطلاقيه . إنّ التجسيد الواقعي لناظمة التقليد المذهبية في النظام المعرفي الشيعي والإسلامي المتوارث ، تحولت إلى حاجز حقيقي بين المجتمع والمعرفة الإسلامية المطلوبة في الكثير من الأحيان ، فقد حول التقليد هذه المعرفة إلى معرفة تلقينية جاهزة بعيدة عن الحيوية والتفكير والتساؤل والتعليم المنتظم والتكوين الفقهي المتناسق والمتكامل للإسلام . تحولت ناظمة التقليد إلى أداة للتسطيح والتجهيل والإتكالية والممارسة بين العالم التقليدي والمفكر الثوري التغييري الإصلاحي الفاعل وبين غيره من العلماء المتحجرين ، أو أولئك المتظاهرين بالقداسة))[٤٣]

رد الحاج الطيب : أتفق معك في بعض مما قلته ، وأختلف في البعض الآخر .

قال الدفاعي : وكيف ذلك .

أجابه الحاج الطيب : لأنّ العلماء أعلى الله مقامهم لهم رؤيتان ، بعضهم يرى ويعمل على وفق ما تقول ومن أمثلتهم السيد محمد باقر الصدر سلمه الله ، ومنهم من لا شأن له فيما ذكرته ، وهم الأغلب ، وفي كل الأحوال ، فإنّ اعتماد المقلد على ذاتيته في تحصيل الأحكام الشرعية بعيداً عن العالم المتخصص دونه خرط القتاد .

سأله الدفاعي : كثيراً ما أسمع عن هذا السيد محمد باقر الصدر . يقال أنّه أسس حزب الدعوة الإسلامية ويتبنى العمل السياسي خلافاً لمنهج العلماء كما هو معروف .

لا لا . ليس الأمر كما تقول وما يشاع عن السيد محمد باقر الصدر من كونه مؤسساً ، أو زعيماً ، أو مرجعاً لحزب الدعوة فهذا غير صحيح[٤٤]

إنّ أشدّ المهتمين بتأسيس حركة إسلامية عالمية هو عبدالصاحب دْخَيِّل أبو عصام ، وصديقه محمد هادي السبيتي ، والسيد الصدر كان يحترم عبدالصاحب دخيل كثيراً ويقدمه على نفسه في الدخول والخروج [٤٥] ، ثم ابتسم الحاج الطيب وأكمل : هل تعلم يا أبا قاسم أنّ أبا عصام شديد الإعجاب بالمستوى التنظيمي لحزبكم ، وأخذ الشكل التنظيمي منه وصيره شكلاً تنظيمياً لحزب الدعوة ؛ لأنّ الحلقة في حزب الدعوة تتكون من خمسة أعضاء يرأسها مشرف ، واللجان المحلية وبقية اللجان الهرمية ، تشبه التنظيم في الحزب الشيوعي [٤٦] .

بهت الدفاعي وتمالكته الدهشه قائلاً : من أين لك هذه الأسرار ودقة المعلومات !؟ قهقه الحاج الطيب وقال : كأنك لم تسمع بأن العراقيين يقرأون الممحي .

من صدى الأماسي

(١)

كانت ساحة نادي نقابة المعلمين بحشيشها الأخضر النائم مسرحاً فاعلاً لمربعات ، ودوائر جلسات تجمع خليطاً متجانساً وغير متجانس من الناس ، وبأزياء متنوعة . تحاول أقداح الخمر توحيدها . بيد أنّها لا تفلح إلاّ في إغداقها نشوة السكر ، وفلتات الخيال ، وأحلام يقظةٍ سرعان ما تبدّدها أجراس الواقع التي تدق بين الفينة والفينة الأخرى ، كأنها صوت الناعي لموت من مات ، وفوت ما فات ، ما بين سكوت الحقيقة ، أو حقيقة السكوت . تلك هي معالم اللوحة الفنية التي تتبختر أقداح الخمر في نقشها هناك ، أو في ساحات نوادي شبيهة بها ، ولسان حالها يصر على زهوها الذي نقشه شيطان شعر أبي نواس [٤٧] في قوله :

يا عـــاذلي بملامٍ مُـرَّ باليـــاسِ ... فلسْتُ أُقلِـــعُ عن رَيْحَانةِ الكاسِ
تبـاعدَ العذلُ عن قلْبي على ثِقَـةٍ ... كمـــا تبـــاعد بين الورْدِ والآسِ
إنَّ المـــزاجَ لَـــها إلْفٌ ، يُعَانِقُها ... وفيـــه طعْمٌ يُحـــاكي قُبْلَةَ الحاسي
فاشْربْ نديمي على العينيْنِ والرَّاسِ ... كذاكَ ، واسْتَفْتحِ اللَّذاتِ بالكاسِ
وغنّني قـــد أجـابَ العودُ شائِقَه ... وحرّكَ النَّـاىُ منّى بعض وَسْواسِى
يا مُقِدَ النَّـــارِ قد أعْيَتْ قَوادِحُهُ ... اقْبِسْ إذا شئْتَ من قلبى بمقيـاس

كان محمد الدفاعي يتميز عن غيره بوسع طاولته وجلسائه ممن يتوق لسماعه يتحدث عن الفلسفة والتطور والنضال والتقدم ، والوطنية والبناء ، والسياسة ، ومفردات كثيرة بحديث شيق يستهوي سامعيه الذين يشنفون أذان فكرهم ، وتلابيب إنصاتهم ، والتوق لعزف وصفه المتجدد يومياً على

أنغام الخمر ونسائم نهر تامرا الذي تفصله عنهم بساتين الحمضيات والنخيل . في عالم يعزف فيه عصير شفاف رائق يدب في الرؤوس كدبيب النمل لتحلق النفوس في عوالم مسحورة زاخرة بالأحلام .

كان يحدثهم أحياناً بقوله : من الأخطاء الشائعة أنّ دارون شيوعي ، وأنّ نظريته هي من نظريات الشيوعية ، باعتباره عالم طبيعيات ، هذا خطأ أول . فدارون درّس الطب في جامعة أدنبره ، ودرّس اللاهوت في جامعة كامبريدج ، ثم استوحى فكرته الأساسية عن الصراع البيولوجي من أجل البقاء من أبحاث مالثوس الرأسمالي في زيادة السكان ، وطبّقها على عالم الحيوان . وقد دافع عن نظرية دارون ذاتها الشيوعيون وحدهم ، بل دافع عنها اثنان من أكابر مفكري الرأسمالية : توماس هكسلي في انكلترا ، وهيجل في ألمانيا . لكن استنتاجات ومعطيات علوم دارون تطابقت في جوهرها في نهاية المطاف مع العلوم الماركسية . الخطأ الثاني جاء من اعتبار كارل ماركس كأنّه الملحد الوحيد ، أو أنّه المسؤول عن إلحاد الملحدين . ولم يأخذ أحد من أولئك المتقولين أنّ الماركسية في الشرق خصوصاً ، لم تروج الإلحاد في برامجها ولا في سلوكها العملي . وإذا وضع أحد كارل ماركس على قمة الملحدين ؛ فإنّه في واقع تآليفه لا يأخذ سوى مرتبة ضئيلة في الإلحاد أمام من سبقوه ولحقوه من المفكرين والفلاسفة الرأسماليين والكنسيين الغربيين . . ابتداءً من (بيير بايل) و(أسبينوزا) في هولندا مروراً بمئات الفلاسفة والمفكرين في ألمانيا وفرنسا وانكلترا وإيطاليا ، وصولاً إلى صاموئيل بتلر في روايتها المعروفة بعنوان (طريق كل البشر) ، بل حتى بالنسبة لشكسبير الذي أورد قولاً إلحادياً في مسرحية الملك لير على لسان جلوستر ، إذ قال : **إنّ مثلنا بالنسبة للآلهة مثل الذباب بالنسبة للأطفال ، فهذه الآلهة تقتلنا كي تتسلى بقتلنا مثلما يتسلى هؤلاء الأطفال بقتل الذباب** . وهو قول واضح الإلحاد ، ولا

شيء يخفف من وطأته سوى استبداله كلمة (الآلهة) بكلمة (الله) . على العموم لا بد من تجنّب سوء الفهم من قبل كل إنسان واع . الحقيقة أنّ الدين في جوهره مشاعر نبيلة يجيش فيها صدر الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، والشيوعي بكل الحالات هو إنسان . أمّا فرضية الماركسية الأساسية ، فإنّها ترى أنّ نشوء المجتمعات العلمانية القائمة على العلم والتكنولوجيا هو الاتجاه الحتمي للتطور التاريخي.

سأله أحد ندمائه الذين يخالفونه في الفكر قائلاً : ألم يضطهد الشيوعيون المسلمين في بعض بلدانهم التي تنضوي تحت جمهوريات الاتحاد السوفيتي ؟ تناول ما تبقى في قدح الخمر الذي كان بيمينه ، وبعدما أعاده وسكب جرعةً أخرى جاعلها تنتظر ريّه لها بعد حين ابتسم وحلّق بلسانه في الرد على تساؤل هذا النديم موزعاً نظرات حدقتيه الخضراوين على ندمائه قائلاً : الافتراض الطبيعي في كون إلحادية الدولة الشيوعية هو أن يتضرر المسلمون في تلك الدول الشاسعة التي تضم عشرات الملايين من المسلمين ، ولا أنكر حقيقة معاناتهم في تلك الدول من اضطهاد الدولة السوفيتية نفسها ، لكنّ ذلك لم يكن بسبب إسلامية هؤلاء المتضررين ، وإنّما بسبب غياب الديمقراطية نوعا مّا في تطبيق نظام الحكم كما هي معاناة المسيحيين في روسيا وبيلاروسيا وأرمينيا وغيرها مما يكثر فيها المسيحيون هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تمعّن في نداء لينين الموجه للمسلمين عام ١٩١٧م الذي جاء فيه : ((يا مسلمي روسيا : لقد أصبحت معتقداتكم ومؤسساتكم ، من الآن فصاعداً ، حرة لا تنتهك . يا مسلمي الشرق : نعلن لكم أنّ المعاهدات السرية المعقودة بين القيصر المعزول ودول أخرى فيما يتعلّق باحتلال القسطنطينية ألغيت ومزقت . ونعلن كذلك أنّ المعاهدة المتعلّقة بتقسيم الأراضي العثمانية قد مزقت وأتلفت)) [٤٨] . وقد عنى هذا النداء بكشف معاهدة سايكس

بيكو ، وهي من أخطر المعاهدات الاستعمارية التي مزقت الوطن العربي . والسؤال هنا : ألا يقودنا منطق هذا النداء أنّ الدولة الشيوعية الأولى في مرحلتها الأولى قد ناصرت حقوق الشعوب الإسلامية الفقيرة ؟[٤٩] .

قاطعه نديمه الذي يحاوره قائلاً : لكننا لم نسمع لمسلم ما أوكلت له وظيفة مهمة ، أو سمح له بأن يكون في المواقع المتقدمة للعمل السياسي مثلاً في الدولة الشيوعية التي تتكلم عنها ، وتنسب لها هذا الوصف الجميل ؟

ابتسم مرة أخرى بعد أن أشعل سيكاراً جديداً منتشياً بالخمرة ودخان السكائر المتبادلين لوظيفة تناوله لهما في مثل هذه الأمسيات وأجابه قائلاً : باستثناء أذربيجان ، لم يكن هناك من بلاشفة مسلمين قبل فبراير ١٩١٧م ، ومع ذلك ، قبلت عضوية ملايين من الأشخاص ، معظمهم من قدامى المناضلين الوطنيين الراديكاليين في الحزب الشيوعي الروسي ما بين فبراير ١٩١٧م ونهاية الحروب الأهلية عام ١٩٢٠م . بعضهم انضم إلى الحزب بشكل فردي ، والبعض الآخر أتى من الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) كتنظيمات سياسية كاملة . ومن بين هؤلاء كان هناك حزب (الإرادة Hummet) الأذربيجاني ، وحزب أوردا الكازاخستاني ، والجناح اليساري لالميلي فرقة (Milifirka) القرمية ، وفي آسيا الوسطى وجد البخاريون والكييفيون الشباب الذين لم يكن لديهم سوى مفهوم عائم عن الماركسية ، إذ لم يكن يهمهم مذهبها الاجتماعي والاقتصادي . إنّ الذين التحقوا بالحزب الشيوعي من هؤلاء تبنوا الماركسية كعقيدة رسمية دون أن يمنعهم ذلك من البقاء أوفياء لولاءاتهم الوطنية القديمة . ولم تكن الشيوعية لديهم سوى وسيلة لتحقيق طموحاتهم في الاستقلال الذاتي ، أو التحرر ، أو المساواة على أقل تقدير . بعبارة أخرى ، لم يكن انخراطهم في الحزب سوى تكتيك سياسي ، وليس التزاماً ايدلوجيا ، ومع ذلك ينبغي الاعتراف أنهم ، وقد

أصبحوا شيوعيين ، كانوا يتصرفون كماركسيين حقيقيين وليس فقط كرفاق طريق . وقد كان أهم منظري الشيوعية الوطنية الإسلامية ينحدرون من أصول تنتمي إلى جميع مناطق الاتحاد السوفيتي من أمثال (سعد سلطان عليف ١٨٨٠ ـ ١٩٣٩م) و(كالمذان إبراجيموف ١٨٨٧ ـ ١٩٣٨م) من تتار الفولغا ، و(تورار ريسكولوف ١٨٩٤ ـ ١٩٣٨م) و(أحمد بايترسون ١٨٧٣ ـ ١٩٣٧م) و(علي بوكاينيكوف ١٨٦٩ ـ ١٩٣٢م) من كازاخستان ، و(فايز الله خودجاييف ١٨٩٦ ـ ١٩٣٨م) من أوزبكستان ، و(ناريمان ناريمانوف ١٨٧٠ ـ ١٩٣٣م) .

كان سيل كلامه يلهب مشاعر جلسائه حباً له ، وتأثراً بما يتبناه من فكرٍ تتسابق معالمه متدفقةً من بين ثنايا منطقه ، ولجام قياده تنفرد به رمقات عيناه الخضراوين ، وابتسامته الهادئة في وسط اصطكاك الأسنة خوفاً من مخالب الأجهزة القمعية التي برعت في اصطياد معارضيها ، ولاسيما الشيوعيين . بيد أنّه كان لا يبالي لهذه المخالب ألبتة ، ولذا لم تستدر رقبته يوماً صوب اليمين ، أو اليسار ، ولم تظهر على قسمات وجهه الطويل الصامد غير البسمات والهدوء والسكينة . كان مؤمناً بما يرى ، ومدافعاً عما يريد حد النخاع وزيادة على الرغم من رعد الملاحقات التي كانت بين المدة والمدة الأخرى ، وبعض الاعتقالات والمبيت خلف قضبان سلب الإرادة والحرية في سجون الحكم الدكتاتوري .

(٢)

كان يحلم بلقائه ذات يوم ، ذلك الشاب البعقوبي ذو الجذور المندلاوية ، وها هو اليوم يجلس معه على طاولة الخمر في حديقة نادي نقابة المعلمين ، وفي أثناء ذلك اللقاء الذي تكرر عدة مرات . سأله متلهفاً لإجابته عن معنى كلمة ديالكتيك التي كان يسمع بها كثيراً وهو من أشد المعجبين بالفكر الشيوعي . كعادته ذلك الضارب بأطناب شيوعيته في رسمه ، ووسمه ، ومخبره أجابه والابتسامة تمازح الرقة والحنان في معالم وجهه قائلاً : تأتي كلمة ديالكتيك من Dialigo الاغريقية، وتعني المجادلة ، أو المناقشة . وفي العصور الغابرة كان الديالكتيك فن التوصل إلى الحقيقة عن طريق كشف التناقضات في مجادلة الغريم ، والتغلب على هذه التناقضات . وكان ثمة فلاسفة في العصور القديمة اعتقدوا أنّ كشف التناقضات في الفكرة وتصادم الأفكار المتناقضة هو أفضل وسيلة للتوصل إلى الحقيقة .

قال الشاب البعقوبي الجميل بعد أن سال لعاب سمعه للمزيد : هل لك أن تصف لي المعالم الأساسية للأسلوب الديالكتيكي الماركسي ؟ قطب الدفاعي حاجبيه وتجعدت جبته قليلاً مخفيةً استغراباً واستنكاراً سرعان ما اختفت لتشرق من ذلك الوجه إشراقته المعهودة بالابتسامة الدائمة وراح يسرد له في إجابته قائلاً : المادية الديالكتيكية هي : النظرة العالمية للحزب الماركسي اللينيني ، وتدعى المادية الديالكتيكية ؛ لان نهجها دراسة الظواهر الطبيعية وأسلوبها ، وتفهمها ديالكتيكياً. والمادية التاريخية هي امتداد مبادئ المادية الديالكتيكية في دراسة الظواهر الاجتماعية ، وتطبيقها على الحياة ، والمجتمع وتاريخه. عندما يصف ماركس وانجلز أسلوبهما الديالكتيكي، يشيران

عادةً إلى هيغل باعتباره الفيلسوف الذي صاغ المعالم الرئيسة للديالكتيك ، وهذا لا يعني أنّ ديالكتيك ماركس وانجلز متطابق مع ديالكتيك هيغل. فقد أخذا من الديالكتيك الهيغلي نواته المعقولة نابذين قشرته المثالية ، وطوراها أبعد من ذلك لكي يضفوا عليها صبغةً علمياً. يقول ماركس : ((ان أسلوبي الديالكتيكي لا يختلف عن الديالكتيك الهيغلي وحسب ، بل هو نقيضه المباشر. فهيغل يحول عملية التفكير التي يطلق عليها اسم الفكرة إلى ذات مستقلة، وأنها خالق العالم الحقيقي، ويجعل العالم الحقيقي مجرد شكل خارجي ظاهري للفكرة. أما بالنسبة لي، فعلى العكس من ذلك، ليس المثال سوى العالم المادي الذي يعكسه الدماغ الانساني ويترجمه إلى أشكال من الفكر)).

سأله نديمه مرةً أخرى : لدى وصف ماركس وانجلز ماديتهما يشيران عادة إلى فويرباخ باعتباره الفيلسوف الذي أعاد المادية إلى صوابها، إلا أنّ هذا لا يعني أنّ مادية ماركس وانجلز متطابقة مع مادية فويرباخ. فما تقول في ذلك أستاذنا ؟ أجابه مسرعاً وهو يتناوب شرب الخمر والسيكار : في الواقع أخذ ماركس وانجلز من مادية فويرباخ لبها الداخلي وطوراه إلى نظرية المادية العلمية الفلسفية ونبذا قشرتها المثالية الدينية الاثنية . نحن نعلم أنّ فويرباخ، ولو أنه كان مادياً بالأساس، لكنه اعترض على اسم المادية. وقد صرح انجلز أكثر من مرة أنّ فويرباخ على الرغم من الأساس المادي، فقد بقي مكبلاً بالقيود المثالية التقليدية، وأنّ المثالية الحقيقية لفويرباخ تظهر بوضوح حالما نتعرّف فلسفته عن الدين والاثنية . هذه الطريقة الديالكتيكية في الفكر، امتدت فيما بعد إلى الظواهر الطبيعية ، وتطورت إلى الاسلوب الديالكتيكي لتفهم الطبيعة ، الاسلوب الذي يعتبر الظواهر الطبيعية في حركة دائمة وتطرأ عليها

تغييرات دائمة ، ويعتبر تطور الطبيعة نتاجا لتطور الظروف في الطبيعة نتيجة التفاعل المتبادل بين قوى الطبيعة المتضادة.

نظر الشاب البعقوبي لساعته التي أشارت عقاربها للساعة العاشرة والنصف مساءً ، وبين حيرته في تأخر الوقت ، وشوقه لمعرفة المزيد من هذا المعين الفكري المتدفق بهدوئه الذي يطرب شفاه العطشى رياً وحلاوةً ، فكسر خجله واستسلم لطمعه في سماع المزيد ، فسأله بعد أن عبّ الكأس بالبيرة المثلجة قائلاً : هل لايمكن أن توضح لي المعالم الأساسية للأسلوب الديالكتيكي الماركسي ؟

أشعل سيكاراً جديداً ذلك الدفاعي واستنشق منها عدة مرات ما بين تناوله جرعات الخمر الثلجي وغار في حدقتي ذلك الشاب البعقوبي الذي نال إعجابه لأسئلته الواعية المتنوعة ، فقال له وهو يدير حبات المسبحة التي تتراقص بلين أنامله عندما يسهب في الإجابة ، أو يسرد حديثاً طويلاً : إنّ المعالم الأساسية للأسلوب الديالكتيكي الماركسي هي :

أولاً: على العكس من الميتافيزيق، لا يعدّ الديالكتيك الطبيعة تراكماً عرضياً من الأشياء، أو الظواهر، ولا ترتبط إحداهما بالأخرى، أو منعزلة ومستقلة إحداها عن الأخرى، بل يعدّهما كياناً كلياً مرتبطاً ارتباطاً لا ينفصم لتكون فيه الأشياء ، والظواهر مرتبطة ارتباطاً عضوياً وتعتمد إحداهما على الأخرى وتقرر إحداهما الأخرى.

ثانياً: على وفق الأسلوب الديالكتيكي فإنه لا يمكن فهم أية ظاهرة طبيعية إذا أخذت بذاتها، منعزلة عن الظواهر المحيطة بها إلى حد أنّ أية ظاهرة في أي مجال من الطبيعة قد تصبح عديمة المعنى لنا إذا لم تُدرس بالترابط مع

الظروف المحيطة بها، بل بالانفصال عنها، وأنه على العكس من ذلك يمكن تفهم أية ظاهرة وتوضيحها إذا دُرست في ارتباطها الذي لا تنفصم عراه مع الظواهر المحيطة بها، كظاهرة تقررها الظروف والظواهر المحيطة بها.

ثالثاً: على العكس من الميتافيزيق، يعدّ الديالكتيك الطبيعة ليست في حالة سكون وعدم حركة ، وجمود وعدم تغير، بل في حالة حركة دائمة وتغير مستمر، في حالة تجدد وتطور مستمرين، فحيثما ينشأ شيء جديد ومتطور سينشأ على الدوام شيء متفسخ وزائل على الدوام أيضاً . وعليه فان الأسلوب الديالكتيكي يتطلب دراسة الظواهر ليس فقط من وجهة نظر علاقاتها المتبادلة واعتماد بعضها على البعض، بل كذلك من وجهة نظر حركتها وتغيرها وتطورها، من وجهة نظر نشوئها وزوالها. وأن الأسلوب الديالكتيكي يعدّ ذا أهمية أساسية ليس كما يبدو في اللحظة الراهنة بأنّه دائم الوجود مع أنه قد بدأ فعلاً بالزوال، بل ذلك الذي ينشأ ويتطور، حتى لو كان يبدو في اللحظة الراهنة غير دائم الوجود ؛ لأن الأسلوب الديالكتيكي لا يعدّ شيئاً لا يقهر إلاّ ذلك الناشئ والدائم التطور. يقول انجلز: ((الطبيعة كلها من أصغر الأشياء إلى أكبرها، من حبة الرمل إلى الشمس، من البروتيستا إلى الإنسان، هي في حالة دائمة من النشوء والزوال ، في حالة تغير متواصل ، في حالة حركة وتغير لا يتوقفان ، وأنّ الديالكتيك يأخذ الأشياء وصورها المحسوسة بالجوهر في ترابطها المتبادل، في تسلسلها، في حركتها، في نشوئها وفي اختفائها)) .

رابعاً: على العكس من الميتافيزيق، لا يعدّ الديالكتيك عملية التطور أنّها عملية نمو بسيطة، حيث لا تتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية، بل على أنها تطور يجتاز من تحولات كمية تافهة غير محسوسة إلى تحولات أساسية

مكشوفة إلى تحولات كيفية، يعتبرها تطوراً لا تحدث فيها التغيرات الكيفية بصورة تدريجية، بل بصورة سريعة ومفاجئة، تتخذ شكل طفرة من حالة إلى حالة أخرى ، ولا تحدث بصورة عرضية ، بل نتيجة طبيعية لتراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية . وعليه فإنّ الأسلوب الديالكتيكي يعدّ عملية التطور ليس كحركة في دائرة، وليس كتكرار بسيط لما كان قد حدث فعلاً، بل كحركة إلى أمام وإلى الأعلى، كتحول من حالة كيفية قديمة إلى حالة كيفية جديدة ، أو كتطور من البسيط إلى المركب، ومن الأدنى إلى الأعلى. يقول انجلز: ((إنّ الطبيعة اختبار الديالكتيك، ويجب أن يقال لصالح العلم الطبيعي الحديث أنه قد زودنا بمواد غنية جداً ومطردة الازدياد يومياً لهذا الاختبار. إنه اثبت بهذا أنّ عملية الطبيعة بالتحليل الأخير ديالكتيكية وليست ميتافيزيقية، على أنها لا تتحرك في دائرة أزلية الانسجام تتكرر على الدوام، بل تجتاز عبر تأريخ حقيقي. هنا يجب أن نذكر بالأساس دارون الذي وجه ضربة شديدة للفكر الميتافيزيقي عن الطبيعة ببرهانه على أنّ العالم العضوي المعاصر من النبات والحيوان ، وكذلك الانسان، كله نتاج عملية تطور كانت في تقدم ملايين السنين. في الفيزياء يشكل كل تغير تحولاً من الكمية إلى الكيفية، نتيجة لتغير كمي من شكل معين من الحركة ، إما أن تكون كامنة في الجسم ، أو موجهة له . فعلى سبيل المثال، أن درجة حرارة الماء ليس لها في البداية تأثير على الحالة السائلة ، ولكن حين ترتفع درجة حرارة الماء السائل أو تنخفض، تحل لحظة تتغير هذه الحالة من التماسك وينقلب الماء إلى بخار في الحالة الأولى والى ثلج في الحالة الثانية ... يلزم حد أدنى من التيار ليجعل سلك البلاتينيوم يتوهج. كل معدن له درجة حرارة انصهار، كل سائل له درجة حرارة انجماد ودرجة غليان معينة تحت ضغط جوي معين ، وبقدر ما نستطيع بالوسائل المتوفرة تحت تصرفنا بلوغ درجات الحرارة المطلوبة . وأخيراً

، كل غاز له النقطة الحرجة التي عندها تحت الضغط والتبريد المناسب يمكن تحويله إلى حالة السيولة. إنّ ما يعرف بالدرجات الثابتة في الفيزياء (الدرجة التي تتحول بها حالة معينة إلى حالة أخرى) هي في أغلب الأحيان تعبير عن النقاط العقدية التي يؤدي التغيير الكمي فيها، زيادة أو نقصان الحركة إلى تغير كيفي في حالة الجسم المعين، تتحول نتيجة لها الكمية إلى كيفية . هذا هو بالضبط خط قياس العلاقات الهيغلية الحرجة التي فيها نقاط حرجة معينة، تؤدي الزيادة أو النقصان الكمي فيها إلى طفرة كيفية، فمثلا، في حالة الماء الذي يسخن أو يبرد، حيث تشكل نقطة الغليان ونقطة الانجماد النقطتين اللتين فيها، تحت ضغط جوي اعتيادي، الطفرة إلى حالة تكتلية جديدة، والتي فيها نتيجة لذلك تتحول الكمية إلى كيفية)) .

خامساً: على العكس من الميتافيزيقية تعدّ الديالكتيكية أنّ التناقضات الداخلية ملازمة في جميع الأشياء والظواهر في الطبيعة ؛ لأنها جميعا تحتوي على جانبيها السلبي والايجابي ، جانبيها الماضي والمستقبل، شيء زائل وشيء متطور، وأنّ الصراع بين هذين النقيضين ، الصراع بين القديم والجديد ، بين ما هو زائل وما هو مولود ، بين ما يجري اختفاؤه وما يجري تطوره ، يشكل المحتوى الداخلي لعملية التطور، المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية ، و عليه فإن الأسلوب الديالكتيكي يعتبر أنّ عملية التطور من الأدنى إلى الأعلى لا يحدث بصورة كشف منسجم للظواهر، بل بصورة كشف عن التناقضات الملازمة في الأشياء والظواهر ، بصورة صراع الميول المتناقضة التي تعمل على أساس هذه التناقضات . يقول لينين : ((إنّ الديالكتيك بمعناه الاعتيادي هو دراسة التناقضات في جوهر الأشياء بالذات)) .

(٣)

مساء يومٍ شاتٍ ، وما بين صخب الجالسين على الطاولات المتناثرة في قاعة نادي نقابة المعلمين هرباً من برد ليالي ذلك الشتاء ، وتزاحم سحب دخان السيكار وحركة النوادل المزهوّة بابتسامات مستمرة تهب من أساريرهم صوب الندماء ، وتلبيةً لطلباتهم المتنوعة . كانت هناك طاولة في وسط القاعة تمتد شاغلة مساحة لافتة للنظر ، كأنها طاولة مفاتشة أكثر مما هي طاولة ندماء خمرٍ . تصدر ذلك القلعاوي ، أو الدفاعي طرفاً منها ليحيط بذراعي منطقه وغزارة معلوماته وثقافته لب ندمائه .

سأله أحدهم عن دلالة مفردة الاشتراكية التي تغنّى بها أكثر من فصيل سياسي قائلاً له : كثر ورود مفردة الاشتراكية عند البعض ممن هو في الساحة السياسية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي . ترى ما الاشتراكية هذه ؟

كعادته بعد سماعه لسؤال جليسه تسبق ابتسامته نثر كلامه المحكم والمتقن ، ودوران حدقتي عينيه الخضراوين كأنها تتفحص انتباههم وتفاعلهم حد السكر بما يعبه في أوعية أفهامهم أجابه وكأس الخمر بيمينه قائلاً :

بادئ ذي بدء تنقسم الاشتراكية ، مثلما تنقسم الرأسمالية إلى ثلاثة مراحل : تتضمن أولاها : **دكتاتورية البروليتاريا** ، وتتضمن الثانية : **عهد الاشتراكية الأول الممهد للطور الأعلى** ، وأما الثالثة : فهي **المجتمع الشيوعي الكامل** ، أو **الطور الأعلى للاشتراكية** الذي به تتحقق آمال البشرية (الماركسية) في إيجاد المجتمع الأمثل الذي تتحقق به السعادة التامة الكاملة للبشر أجمعين . وقد أشار إلى ذلك كوفالسون قائلاً : ((إنّ العملية الطبيعية التاريخية لقيام وتطور التشكيلة الشيوعية تشكل ثلاث درجات معروفة

تتعاقب بصورة محتمة طبيعية ، هي المرحلة الانتقالية التي ترسي الثورة الاشتراكية بدايتها ، ومرحلة الاشتراكية ، أي الطور الأدنى من التشكيلة الشيوعية ، ومرحلة الشيوعية)) . وكما أن الماركسية قد أكثرت الكلام في نقد الرأسمالية ، كذلك أكثرت الكلام في وصف الاشتراكية ، وذلك لعدة أسباب منها :

- ❖ إتمام نظريتها المادية التاريخية ، وبنائها الفكري بشكل متكامل واضح .
- ❖ الدعوة العالمية إلى مبدئها والترغيب بأهدافها .
- ❖ تمييز اشتراكيتها على الاشتراكيات الأخرى ، وهي عديدة في العالم (كما ذكرت في سؤالك) .ومن هنا اصطلحت الماركسية على اشتراكيتها بالاشتراكية العلمية . نظراً إلى أنها ناتجة عن مبدأ عام لفهم التاريخ ، هو المادية التاريخية ، وأما الاشتراكيات الأخرى فليست كذلك .
- ❖ إعطاء المبررات النظرية الكافية لتصرفات الحكومات الاشتراكية باعتبار اقتران هذه الأفعال مع التطورات الحتمية للاشتراكية ، باعتقاد الماركسية .

قاطعه جليس آخر قائلاً : هل لك أن توضح لنا تلخيص الفكرة الماركسية عن الأطوار الاشتراكية التي ذكرتها في كلامك ؟

أجابه بعد أن أشعل سيكاراً جديداً ، وعب ما في القدح من خمرٍ قائلاً :

فيما يخص المرحلة الاشتراكية الأولى (دكتانورية البروليتاريا) ، فقد أكّدت الماركسية بوضوح على ضرورة مرور المجتمع بهذه المرحلة ، لأجل

الانتقال من العهد الرأسمالي إلى العهد الاشتراكي والشيوعي . قال ماركس : ((بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالي نحولاً ثورياً إلى المجتمع الشيوعي وتناسبها مرحلة انتقالية سياسية لا يمكن أن تكون الدولة فيها سوى الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا)) ، ويقول لينين أيضاً : ((إنّ الانتقال من المجتمع الرأسمالي بسبيل التطور نحو الشيوعية إلى المجتمع الشيوعي يستحيل بدون مرحلة انتقال سياسية ، ولا يمكن لدولة هذه المرحلة أن تكون غير الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا)) ، وتتصف هذه المرحلة بوجود الطبقات ، كما كانت عليه في العهود السابقة عليها . بيد أنّ الأمر هنا يكون بعكس ما كان عليه نفوذ الطبقة القليلة المسيطرة والمضطهدة للأكثرية ، فإنّ البروليتاريا هي التي تضطهد الرأسمالية ومؤيديها ، بل أنّها تقمعهم قمعاً ، وتبيدهم عن الوجود في خلال صراع مرير .

وبعد سرد طويل له وهو يفصل في المرحلة الأولى ينتقل إلى المرحلة الاشتراكية الثانية (الطور الشيوعي الأول المسمى بالاشتراكية) مستشهداً بقول لينين : ((إنّ ما نواجهه هنا ، إنما هو مجتمع شيوعي لا كما تطور على أسسه الخاصة ، بل بالعكس كي يخرج لتوّه من المجتمع الرأسمالي ... إنّ هذا المجتمع الشيوعي المنبثق لتوّه من أحشاء الرأسمالية ، والذي يحمل من جميع النواحي طابع المجتمع القديم ، يسميه ماركس بالطور الأول ، أو الأسفل من المجتمع الشيوعي)) . واستمر في بيان المرحلة الاشتراكية الثانية منتقلاً إلى المرحلة الاشتراكية الثالثة بعدما حولق صوب ساعته بالمينة البيضاء والعقارب السوداء وحزامها الأسود أكثر من مرةٍ ، وهو يخشى تهافت انتباه ندمائه ليقول : تطرقت فيما مرّ على بعض ما أعطته الماركسية من تعاريف للشيوعية ، أو الطور الشيوعي الأعلى ، وكان قد ذكر لهم أكثر من تعريف للشيوعية منها :

❖ الشيوعية هي : تنظيم اجتماعي عاقل يعتمد على قاعدة تكنيكية عالية التطور ليوحد الناس في إطار وحدة تضامنية من أجل إخضاع قوى الطبيعة باطراد ، ويوطد سيادة الإنسان على علاقاته الاجتماعية بالذات ، وليوجه النظام الاجتماعي كله ، والثقافة المادية والروحية نحو تطوير الإنسان تطويراً متناسقاً متناغماً .

❖ الشيوعية هي : الإلغاء الإيجابي للملكية الخاصة (وهي نفسها ضياع إنساني للذات) وبالتالي تملّك فعلي للماهية الإنسانية من قبل الإنسان ومن أجل الإنسان ... إنها الحل الحقيقي للتضاد بين الإنسان والطبيعة ... بين الإنسان والإنسان ، الحل الحقيقي للصراع بين الوجود والماهية ... بين الموضوعية وتأكيد الذات ... بين الحرية والضرورة ... بين الفرد والجنس . إنّها اللغز المحلول للتاريخ ، وهي تعرّف ذاتها على أنّها هي الحل .

يتوقف عن إكمال حديثه عندما يرى استئذاناً خجلاً حكته حدقات أغلب ندمائه ، فيقطع كلامه ويبتسم ويعتذر قائلاً : لقد مر الوقت بسرعة ، ولعلي أثقلت عليكم ، وأفسدت عليكم أمسيتكم هذه . أرجو أن تتقبلوا اعتذاري الشديد . تتسابق كلمات الجالسين بالضد مما ختم به حديثه وتعذروا بتأخر الوقت ، فقد وصل عقرب الساعات حد الثانية عشرة ليلاً ، وطلبوا منه إكمال حديثه الشيق في أمسية أخرى لاحقة .

هزّ رأسه وأومأ بالموافقة ، لكن أحدهم سأله قائلاً : كيف ستعود لدارك ولا توجد وسيلة نقل توصلك في هذا الوقت المتأخر ، وحلكة ليله

الشتائي البارد ، ومخالب الأجهزة القمعية التي تطاردك وتعد عليك أنفاسك !؟

أجابه محمد الدفاعي مسرعاً والتحف كلامه بعض الغضب البارد : ألست ماركسياً ؟ أجابه السائل مسرعاً : نعم . نعم أنا ماركسي . فقاطعه الدفاعي قائلاً والبسمة ملأت كل ساحات وجهه الطويل ، وبهدوء وحنين : الماركسي يستعمل قدميه للوصول ، ولا تقلق بشأن هؤلاء العسلان ؛ لأنني أسير مع الجدران ويدي على مقبض خنجري ، فإن هاجمني هؤلاء سيؤمن الجدار ظهري ، وصدري يتسلح كفين يقبض أحدهما على خنجر ضارٍ لا يقرب منه متطفل ، أو طارق .

(٤)

في مساءٍ مبكرٍ ربيعيٍ وبين الزهور التي تحيط بحديقة نادي نقابة المعلمين وتلألؤ قطرات الماء العالق بين خصل البساط الأخضر لحشيش الحديقة بفعل ما تبقى من أشعة الشمس لذلك اليوم كان محمد الدفاعي يجلس لوحده يحتسي الخمر مع خليط من القثاء والزبادي وسيكاره الذي نادراً ما يفارق قبضة أنمليه . سلّم عليه رجل أربعيني لا يعرفه واستأذنه للجلوس على طاولته . لم يكن محمد الدفاعي متهيباً لمثل هذه المفاجآت ، فقد كان صلباً لا يخشى أحداً ، ولاسيما رجال الأجهزة الأمنية . رحّبَ الدفاعي بضيفه وقدم له سيكاراً وقدحاً من الخمر الأبيض ، وسأله إن كان لا يفضله . ردّ عليه جليسه الوحيد في هذه الأمسية بالشكر وعدم تناوله السيكار ، وتفضيله للبيرة التي سيطلبها هو ، وطلب منه السماح له بأن يحدثه عما يريد معرفته بعد أن أخبره بأنّه من المعجبين به ومتابعته لجلسات كثيرة من بعيد وهو يتسيد الحديث ، وحال مستمعيه كأنّ على رؤوسهم الطير !.

ابتسم محمد وقال له : تفضل أخبرني بما تريد معرفته من فضلك ؟

قال له ذلك الجليس : اسمح لي بأن أعرّف لك عن نفسي قليلاً ، ثم أسألك عمّا أريد معرفته . أنا أعمل في مجال القانون والمحاماة ، وحالياً أنحو صوب القضايا الاجتماعية من الطلاقات وغيرها ، ومنى الناحية السياسية ، فأنا لا أنتمي لأية جهة سياسية . مستقل الاتجاه . بيد أنني أهوى الفكر الماركسي على فقر معلوماتي عنه ، وعن الحزب الشيوعي ، ولذلك حبذا لو تحدثني عن جذور الحزب الشيوعي في العراق ،وعن شخصية فهد الذي أسمع به كثيراً ، وأجهله تماماً .

أطرق محمد الدفاعي قليلاً ودارت حدقتا عينيه في عدة اتجاهات ، ثم نظر لساعته ،ولسان حاله يتفحص الوقت وتناسب الجواب مع هذه الخلوة بهذا الجليس ، وكعادته تناول رشفةً من خمره وبدت ابتسامته سابقةً مقدرته الثقافية الواسعة ، وبدأ ينشد أعذب ألحان السرد لعقودٍ من الزمن تناوشت العقد الرابع منها قائلاً : بدأ الوعي الاشتراكي والأفكار الماركسية بالوصول إلى العراق في بداية العشرينات ، كان عمري حينها سنةً واحدةً ، فظهر عدد من المثقفين الذين شغفوا بالأفكار الماركسية وانكبوا على دراستها من طريق ما يصلهم من الكتب والكتيبات والكراريس والمجلات الماركسية من طريق سوريا ولبنان . وكانوا يعيرونها إلى بعض أصدقائهم ممن يميلون إلى قراءتها والاطلاع على مضامينها . عندها ظهرت أول حلقة من الماركسيين العراقيين حاولت تأسيس أول منظمة شيوعية . ضمّت كلاً من : حسين الرحال ، عوني بكر صدقي ، مصطفى علي ، محمد سليم ، محمد أحمد المدرس ، عبدالله جدوع ، وأصدرت مجلة علنية نصف شهرية باسم (الصحيفة) صدر عددها الأول في ٢٨ كانون الأول ١٩٢٤م . عالجت الصحيفة مشاكل العراق الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، ودعت إلى تحرير المرأة وتعليمها ، وهاجمت الاقطاع والرجعية ، وأوضحت أنّ الرجعيين جراثيم سامة في كل بلد . وناقشت المشاكل الدولية ، ومنها التمييز العنصري الذي انتقدته بشدّة . والواقع أنّ جهود جماعة الصحيفة باءت بالفشل ، فأغلقت المجلة وانفرط عقد الجماعة لعدم نضج الظروف الموضوعية لها .

سكت قليلاً بعد أن اقترب النادل منهما ليقدم قنينتين من بيرة فريدة المشهورة لجليسه وصحناً من السلطة بالزيتون الأسود وقنينة عرق زحلاوي الشهير من الفئة الصغيرة لمحمد الدفاعي . بعدها واصل حديثه قائلاً : استطاعت الحركة الماركسية إيجاد قاعدة لها بين صفوف العمال ، وكان

يوسف سلمان من العاملين في هذا المجال ، ويوسف هذا المشهور باسم (فهد) من مواليد بغداد ١٩٠١م انتقل إلى البصرة ودرس في مدرسة السريان الابتدائية ، ثم دخل مدرسة الرجاء الصالح الأمريكية . بيد أنّه لم يكمل دراسته ، فاشتغل عاملاً ، وتنقل بين البصرة والناصرية ، وأصبح عضواً في (الحزب الوطني العراقي) وافتتح له مكتبة لبيع الكتب والمجلات ، والصحف أغلقت عام ١٩٣١م ، فأصبح مراسلاً لجريدة الأهالي في الناصرية يكتب (مراسلكم) فقط من دون أن يفصح عن اسمه .

قاطعه جليسه بعد أن عبّ قدحين من البيرة وشارفت القنينة الأولى أن تفرغ مما عبئت به من بيرة الفريدة قائلاً : أنا تائق لسماع المزيد عن شخصية فهد ، أو يوسف سلمان يوسف كما هو اسمه . أليس كذلك ؟

ابتسم محمد الدفاعي وأومأ برأسه موافقاً لتوصيف جليسه وقال : هذا الرجل فهد من الرجال القلائل الذين شقوا دربهم بعراك مستمر مع الذات والبيئة والقيم الاجتماعية السائدة ، وجلباب الفقر الشائك ، وأضراس الحرمان والعوز الموجعة . إنّ عمل فهد وسط العمال دفعه للاشتراك في الإضرابات العمالية المختلفة ، ومن ثمّ اتجه إلى تثقيف نفسه فاعتنق الماركسية اللينينية حوالي عام ١٩٢٨م ، وبدأ التبشير بها في الناصرية والبصرة ، وقام مع بعض أصحابه بجولات بين أبناء الريف كأساس لعمله في إيجاد فلاحين ثوريين ، وبدأ العمل في الناصرية على تشكيل حلقات ماركسية ، ومما يذكر في مذكرات عبدالكريم حسون الجارالله أنّ فهداً اتصل به عام ١٩٣٢م ، وعرض عليه آراء اشتراكية باسم (الحزب الشيوعي العراقي) ، وأنّه أصدر منشوراً موقعاً باسم الحزب الشيوعي العراقي بعنوان (يا عمال وفلاحي البلاد العربية اتحدوا) . في عام ١٩٣٣م اعتقل فهد في الناصرية الفيحاء ، واعترف في أثناء التحقيق بأنّه شيوعي ، وكان من أوائل الذين وقفوا أمام المحكمة

مدافعاً عن المبدأ الشيوعي في الوقت الذي لم يكن أحد قبله يعتنق هذا المبدأ والدفاع عنه . وأطلق سراحه بعد توسط ((جعفر أبو التمن)) ، زعيم الحزب الوطني العراقي ، فانتقل بعد ذلك إلى بغداد واتصل بالحلقات الماركسية الأخرى التي سعت إلى توحيد جهودها في تنظيم واحد .

بدأت الشمس تجر ما تبقى من أذيالها مستسلمةً لغروبها وحلول تباشير ليلة اليوم التالي ، وإشراقة بدرها الثلجي لقمر لهلال الشهر الأول من الفصل الربيعي ، وبعد أن أشعل سيكاراً جديداً أخذ ينثر مجوهرات سرده لجليسه قائلاً : انعقد في بغداد في ٣١ آذار ١٩٣٤ اجتماع تأسيسي للشيوعيين الذين جاؤوا من بعض مناطق العراق وقرر المجتمعون توحيد منظماتهم في تنظيم مركزي واحد بأسم (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار) وانتخبوا اللجنة المركزية، وكان عاصم فليح الرجل البارز في هذا المجال فأصبح أول سكرتير للحزب الشيوعي العراقي وأصبح فهد عضو في اللجنة المركزية. وقد أصدرت اللجنة بياناً لخصت فيه الأهداف السياسية ونظام الحزب ووزع البيان على الجمهور. وفي آذار ١٩٣٥م أصدرت اللجنة بياناً دافعت فيه عن (الانتفاضة المسلحة في أرياف الفرات وكردستان) . بعد ذلك اتخذت اللجنة المركزية قراراً في تموز١٩٣٥م بإعلان اسم الحزب الشيوعي بدلاُ من لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار ، وأصدرت جريدة مركزية للحزب باسم (كفاح الشعب) كلسان ناطق عن الحزب الشيوعي العراقي ، وكانت وقتئذٍ تطبع بالرونيو . كما أصدر الحزب منشوراً مكتوباً باليد ومسحوباً بالرونيو على ورق من الحجم الكبير موقعاً من قبل (الحزب الشيوعي العراقي ـ آب ١٩٣٥م) لتأييد عمال السكك ، ويعتقد أنه أول منشور مطبوع يصدره الحزب .

قاطعه رجلان أحدهما يلبس منظرة طبية ، والثاني أشيب الرأس متوسط الطول كأنّ بينه وبين محمد الدفاعي سابق معرفة ؛ لأنّه عرّفه على رفيقه صاحب المنظرة الطبية الذي بدا أنّه يحمل شهادة مهندس مدني ، وألحّ عليهما بالجلوس ، إلاّ أنّهما اعتذرا واستأذناه على أمل اللقاء به في أمسية لاحقة . جلس وتناول بعض الخمر وأشعل سيكاراً ، ثم أكمل حديثه قائلاً : صدرت جريدة كفاح الشعب ، وهي أول جريدة سرية في تأريخ الصحافة العربية ، صدر منها خمسة أعداد فقط ، وتوقفت عن الصدور في أواخر سنة إصدارها ، وأوضحت خلالها الشعارات الأساسية التي حددها الحزب وهي :

- ❖ إلغاء معاهدة ١٩٣٠م العراقية البريطانية .
- ❖ تصفية قاعدتي سن الذبان والشعيبة العسكريتين البريطانيتين.
- ❖ توزيع الأراضي على الفلاحين .
- ❖ يكون وقت العمل ٨ ساعات.
- ❖ اطلاق الحريات الديمقراطية.
- ❖ الاعتراف بحق استقلال كردستان.
- ❖ حل مجلس النواب وإجراء انتخابات عامة في ظل الحريات السياسية .

عند ذلك وقفت السطلة موقفاً صارماً تجاه التنظيمات الشيوعية الجديدة واستطاعت في (تشرين الثاني ١٩٣٥) ضرب التنظيم باعتقال قسم من أعضاء التنظيم ومصادرة المطبعة فتوقفت جريدة كفاح الشعب عن الصدور.

واعتقل سكرتير اللجنة المركزية للحزب عاصم فليح وبقي موقوفاً لمدة ستة أشهر أطلق سراحه بعد أن أعطى تعهداً شفهياً بترك النشاط الشيوعي.
قال له جليسه : كم أنت رائع ، وموسوعي تفضل أكمل حديثك الشيق الرائق .

أومأ برأسه الدفاعي لينثر مزيداً مما في جعبته قائلاً : وجد الحزب الشيوعي ظروفاً مناسبة للعمل بعد انقلاب بكر صدقي (١٩تشرين الاول ١٩٣٦) فأستطاع قيادة مظاهرة كبيرة في الثالث من تشرين الثاني عام ١٩٣٦م ، إذ بدأت مسيرتها من الكرادة الشرقية حتى بلغت جامع الحيدر خانة ، القيت فيها الخطب الحماسية ، كما سمحت حكومة الانقلاب لبعض الكتب الممنوعة ، التي تحمل الافكار الشيوعية من دخول العراق وأطلقت بعض الحريات العامة لبضعة اشهر وأجازت جمعية الاصلاح الشعبي.

إنّ هذه الظروف هيأت للحزب الشيوعي الاشتراك في الإضرابات العمالية والقيام بمظاهرة في السادس من تموز عام ١٩٣٧م ، لنصرة القضية الفلسطينية احتجاجاً على مقرات اللجنة الملكية التي شكلتها بريطانيا للتحقيق في الإضرابات التي وقعت في فلسطين عام ١٩٣٦م ، وكان قرار اللجنة بتجزئة فلسطين الى ثلاث دويلات موضع الاستنكار الشديد في معظم أرجاء الوطن العربي . تغيرت الظروف في أواخر أيام الانقلاب فاضطُهد اليساريون وعطلت جمعية الاصلاح الشعبي ، وجرت اعتقالات متتالية بين الشيوعيين في بغداد ، ولا سيما الجنود ، فقد اتهم ما يقارب الخمسمائة والخمسين من ضباط الصف والجنود بتهمة الشيوعية ، وكان قد عثر معهم على صور ستالين ، إلاّ أنّ رئاسة المجلس العرفي العسكري أرسلت الأوراق التحقيقية برمتها إلى قائد القوات العسكرية لعدم وجود سند قانوني بمنع فكرة الشيوعية ، ويسمح بإجراء محاكمتهم، وأسقطت الجنسية العراقية عن

عبدالقادر اسماعيل أحد أعضاء المؤسسين لجماعة الأهالي الذين تحولوا الى الشيوعية وأخيه يوسف اسماعيل. بعد ذلك مهدت هذه الحملات الطريق للحكومة لإصدار ذيل قانون العقوبات البغدادي الرقم ٥١ لسنة ١٩٣٨م الذي نص في مادته الأولى على : ((يعاقب بالأشغال الشاقة ، أو الحبس مدة لا تزيد عن سبع سنين ، أو بالغرامة ، أو بهما كل من حبّذ ، أو روّج بإحدى وسائل النشر المنصوص عليها في المادة ٧٨ من هذا القانون أياً من المذاهب الاشتراكية البلشفية (الشيوعية) والفوضوية والإباحية ، وما يماثلها التي ترمي الى تغيير نظام الحكم والمبادئ ، والاوضاع السياسية للهيئة الاجتماعية المنصوص عليها بالقانون الاساسي)) .

في تلك اللحظات لحظ الدفاعي على وجه جليسة ملامح الشعور بالجوع فالتفت من فوره يميناً وشمالاً مؤشراً للنادل الذي كان يحمل بعض قناني البيرة الفارغة بالقدوم صوبهم ، وعندما وصل النادل طلب منه صحن مشويات عشاءً لهما من غير أن يسأل جليسه ، فقال له جليسه والحياء يتوهج من وجنتيه احمراراً : لست جائعاً . ابتسم محمد الدفاعي وهزّ رأسه قائلاً : أنا أشعر بالجوع ورجائي أن تشاركني الطعام ولا تبخل على عمك بقبول ضيافته . دعنا نأكل ونتحدث إنْ سرّك ذلك ؟ هزّ جليسه رأسه مومئاً بالقبول ، وحياءه أكثر وهجاً من ذي قبل قائلاً : هل تعلم أنني أزداد حباً لك ، وتعجباً بك . ليتني تعرّفت عليك قبل هذا الوقت لأنهل منك المعرفة والخلق الكريم . أجابه الدفاعي قائلاً : طيب لنكمل حديثنا إذن ، وعاد ليقول : بدأت عملية إعادة تنظيم الحزب في أواخر عام ١٩٣٨م على يد يوسف سلمان يوسف المشهور بفهد كما تعلم ، وكان فهد قد غادر العراق في نهاية عام ١٩٣٤م ، إذ أرسلته اللجنة المركزية الى موسكو لتكميل دراسة الماركسية اللينينية . فسافر عن طريق سوريا واتصل في سوريا بزعماء

الحزب الشيوعي البارزين ، ثم غادر الى ايطاليا وفرنسا واشتغل بعض الوقت مع الحزب الشيوعي الفرنسي ككادر حزبي ، ثم سافر الى موسكو وتتلمذ هناك على يد (جورج ديمتروف) وزعماء الكومنترن الأممية الآخرين[٧٠]. وجد فهد بعد عودته من موسكو أنّ السلطة استطاعت تهشيم التنظيم واعتقال قادته ولذلك بذل جهوداً كبيرةً من أجل جمع الشيوعيين ، وإعادة التنظيم وكانت جهوده في المدة ما بين١٩٣٨ـ ١٩٤٥م مكرسة لإعادة بناء الحزب . وقد بدأ الحزب في عام ١٩٤٠م نشاطاً ثقافياً ملحوظاً ، فترجم عدداً من الكتب والمؤلفات الماركسية منها على سبيل المثال (الدستور السوفيتي) الذي طبع على الرونيو وسلسلة من المحاضرات بعنوان (دروس في الماركسية اللينينية وغيرها) . كما أصدر الحزب جريدة (الشرارة) (وهو الاسم نفسه الذي أطلقه لينين على الجريدة الشيوعية التي أصدرها وقتذاك عام ١٩٤٠م وبالتحديد صدر عددها الأول في كانون الأول من ذات العام الذي فقد هو والأعداد السبعة التي تلته في الإصدار.

(٥)

دخل لوحده بقميص فضفاضٍ لونه بلون السماء الصافية في بعضٍ من ثنايا قميصه بعض التموجات الدالة على كونه لم يمر به المكواة . ترك نهايته الدفاعي منسدلة على بنطلونه الرمادي القاتم . جلس على طاولة لوحده هذه المرة !. جاءه النادل وسلم عليه وسأله ماذا يحب أن يقدم له ؟ طلب منه قنينة عرق ، وصحن سلطة . بدأ يشرب لوحده وتناوبت السكائر للإشتعال متنقلةً بين شفتيه ومطأطأة رأسها على حافة منفضة السكائر لتنثر ما علق بها من رماد . استغل النادل فرصة قلة عدد الجالسين ممن كان يتناول الخمر فسأل محمد الدفاعي قائلاً : عمو . هل صحيح أنّ الشيوعيين يقولون بأنّ الدين أفيون الشعوب ؟

ابتسم الدفاعي لهذا النادل الشاب وردّ عليه قائلاً : من قال لك هذا القول ؟

قال النادل الشاب : أنا أسمعه من الناس ، ويقولون بأنّ الشيوعيين كفّار وسيئين ! ، وبصراحة ، أنا لم أرّ منك مثلاً ما يسيء لأحد طيلة المدة الطويلة التي أعمل فيها هنا ، بل أرى كثرة محبيك وجلسائك ، كما أنّك كثيراً ما تطلب الطعام للآخرين وتدفع حسابه أنت .

قال الدفاعي : هذه المقولة التي يرددها الكثير من الناس ((**الدين أفيون الشعوب**)) هي لماركس ، وليس للشيوعيين ، وأراد بها ماركس أن ينبه إلى أنّ هناك كثرة كاثرة وغالبية فعلية من رجال الدين تستخدم الدين كأفيون لتخدير شعوبهم ، والسكوت عن حالات البؤس ، والفاقة ، والاستغلال التي يتعرضون لها في مجتمعاتهم ، وقصد بها قساوسة الكنائس . نعم يمكن تعميم ذلك على رجال الدين المسلمين فيما لو تطابق سلوكهم بسلوك

أولئك القساوسة ، إذ أنّ رجال الدين يقولون لهم أنّ للفقراء ، والمعوزين ، والمحتاجين ، والمُستَغَلين لهم حياة أخرى في الآخرة سيسعدون بها ، في حين يتمتع الأغنياء بالحياة الدنيا . أقول ليس كل رجال الدين لهم علاقة بهذا العرض المسيء للدين ؛ لأنّ بعضهم أصبح يعي الفارق بلين أن يصبح الدين أفيوناً مخدراً ليقظة الناس ، وبين أن يكون مساعداً للناس في النهوض من كبوتهم والعمل ضد الاستغلال والنهب والسلب . أليس منهم من حمل السلاح وقاتل المستعمر الأجنبي في ثورة العشرين ؟ . كما أن بعض رجال الدين يشاركون في نهب وسلب الشعب والفساد المالي والوظيفي كما تفعل الكثير من العناوين السياسية الدينية ، وكذا الحال للقوى والشخصيات العلمانية .

لقد اشترط النظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي أن يكون العضو فيه مقتنعاً بالمادية الجدلية ، والمادية التاريخية ، ولكن هذا الشرط قد مسّ دوماً الجانب السياسي ، وليس الجانب الفلسفي منه . ولهذا تجد في زمن سكرتير عام الحزب الشيوعي العراقي الرفيق فهد وحتى الآن ، المسلم السني والشيعي والمسيحي واليهودي والصابئي والشبكي والكاكائي والإيزيدي ، وهم مؤمنون ، جنباً إلى جنب مع الملحدين منهم . تجد أيضاً من يصلي ويصوم ومن يدفع الزكاة إلى جانب من لا يقوم بذلك ، ولكنه لم يكن ملحداً ، بل مؤمناً بتلك الأديان ولكنه لا يؤدي فروض الدين . وبالمناسبة ، حتى بالأحزاب الإسلامية الموجودة في العراق والوطن العربي تجد من يصلي ومن لا يصلي ، ومن يصوم ومن لا يصوم ، ومن لا يدفع الزكاة ، بل يرتشي وينهب ويسلب من أموال الدولة والمجتمع ، والأمثلة كثيرة في هذا الصدد .

سأله النادل والعجلة ترتسم على منطقه قائلاً : أفهم من كلامك أنكم لا تدعون للإلحاد !؟

رد عليه الدفاعي بهدوء واثق : الحقيقة أنني وخلال وجودي الطويل في الحزب الشيوعي في خلاياه ، وفي بعض المواقع المتقدمة ، ومن خلال قراءاتي لآداب ، وأدبيات الحزب ، لم أسمع بمعالجة أية مشكلة داخل الحزب من منظور الإلحاد عندما يأتي جدل حول الإسلام والمسلمين . بل كان العالم المأساوي هو الذي يحتل مكان الأولوية في رؤيتنا لحال الفقراء المسلمين في كل مكان من العالم ، ولاسيما العالم الثالث . أما التفكير بالكون والوجود فلم تكن عندنا عنها أفكار نهائية . كان الهم الأول واليومي هو الارتفاع بقدرة الشيوعي الغامرة على الإبداع في العمل الفكري وفي العمل بين الجماهير . وكانت الأخلاق والمثُل التي يراد بها بلوغ الأهداف المنشودة تنطلق من القيم العليا التي يبشر بها أئمة المسلمين أنفسهم من قبيل (الصدق ، والإخلاص ، والنزاهة ، والوفاء ، والالتزام الوطني والأخلاقي ، والتضحية ، والشجاعة ، والتواضع ، والدفاع عن حقوق الكادحين وغيرها) أي أنّ معظم السلوك الاجتماعي كان ينطلق من الحس الوجداني والتصور الذهني لأعضاء الحزب من المسلمين والمسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم ، كان ينطلق بمجمله من الأخلاق الإسلامية . كما أنني لم أعثر حتى الآن على مطبوعات (كتاب ، أو جريدة ، أو مقال) كتبها أو نشرها أو روج لها الحزب الشيوعي العراقي تدعو إلى الكفر أو الإلحاد أو الإساءة إلى الإسلام كدين أو إلى المسلمين كمؤمنين ، وما يروج له من تفسير مصطلح الرجعية في أدبيات الحزب بأنّ المقصود به المرجعيات الدينية ، أو رجال الدين ، المتدينين ، فلا صحة له ألبته ، وإنما المقصود به التخلف المتمثل بالإقطاع واستغلال حقوق وجهود الطبقة العاملة ليس إلاّ.

كان النادل يستمع وكأنّ على رأسه الطير ، وفجأة يناديه نادلٌ آخرٌ ليلفت انتباها بتوافد الرواد ممن يرتادون هذا النادي ، فيستأذن ذلك النادل الشاب مع ابتسامة بان عليها الشكر والشوق لسماع المزيد .

(٦)

دخل الأستاذ الجامعي وقد ناهز عمره العقد الخامس من السنين بصحبة صديقه المصور البعقوبي الشهير لقضاء أمسية ذلك اليوم القائظ في نادي نقابة المعلمين . ما أن رمقا الطاولة التي يتصدرها الدفاعي محيطاً بها مجموعة من رفاقه الشيوعيين رغبا بالجلوس مع هذه المجموعة المائزة بصخب المناقشات ، وعواصف السؤالات .

دكتور هل ترغب بالانضمام لتلك المجموعة التي يتحدث فيها ذلك الأسمر بالعينين الخضراوين ؟ سأل البعقوبي صاحبة الجامعي . قال ولم لا ؟ دعنا نقضي بعض الوقت معهم . حسناً . حسناً دعني أقدمك لهم.

أسعدتم مساءً . أقدّم لكم صديقي الدكتور سامي أستاذ الفلسفة في جامعة بغداد .

أهلاً . أهلاً بكما . شرّفنا اختياركم رفقتنا هذه الأمسية . أهلاً بك دكتور تفضل أجلس بقربي . هكذا رحّب محمد الدفاعي بهما ، وبعد جلوسهما وتناول الخمر معاً دار الحديث بين الدكتور سامي والدفاعي وبقية الحاضرين يستمعون لهما بشغف ما بين معجب بالدكتور سامي ، وهو الأستاذ الدكتور من جامعة بغداد والمتخصص بالفلسفة ، ومعجب بمحمد الدفاعي الذي لم يجتز الصف الرابع الابتدائي ، ومعجب بكليهما لما يتناثر من حوراهما الهادئ المفعم بالمودة والمعرفة .

قال الدكتور سامي : يبدو أن فهداً (يوسف سلمان يوسف) هو من بذر بذرة الشيوعية الأولى في العراق ، لطالما أبحر في معالم شخصية هذا الجنوبي الذي كان ولا زال يشغل حيزاً كبيراً في الحزب الشيوعي العراقي .

ابتسم الدفاعي قائلاً : الكثير يتصور ذلك بخلاف حقيقة ما كان ! .

قفز سؤال الدكتور : وما الحقيقة ؟ خبرني من لطفك .

تناول الدفاعي جرعةً من الخمر وبعضاً من سيكاره ، ثم قال : في زمن الحكم الملكي ذهب إلى موسكو شاب عراقي متحمس بعد سماعه بالثورة الروسية وهو عاصم فليح ، وحين عاد أسس أول حزب شيوعي في بغداد ، وكان يقوم بتوزيع المنشورات السرية المنددة بالاستعمار والمتناولة للأوضاع السياسية آنذاك . بعدما اقتنى الحزب مطبعة رونيو وضعت بذكاءٍ عند الشاب الأملح طباخ الملك الذي انتمى إلى لحزب ، فكانت المطبعة في حصن حصين بعيد عن الشبهات ، وكانت دار الملك تطل على نهر دجلة بجانب كرخ بغداد قرب دار الإذاعة . ويقال أنّ الطباخ حاول أن ينظم عبدالإله في الحزب الشيوعي ! ، وكان الشيوعيون يستخدمون الزوارق الصغيرة (البلم) (٥٠) في توزيع منشوراتهم بدءً باستلامها من طباخ الملك تجنباً للملاحقة الأمنية ؛ لأنّ السير في الشوارع يعرضهم إلى ملاحقة الشرطة . وتعرّض عاصم فليح إلى الضرب المبرح والإهانات مرة أمام وزارة العدلية ، وبسبب ذلك ترك العمل في الحزب الشيوعي ، بعدها قامت الحكومة بمراقبة نشاط الشيوعيين وكشفهم ، وكان المكلف بتعقبهم ومضايقتهم معاون الشرطة عبدالرزاق العسكري الذي يمت بصلة رحم إلى جعفر العسكري . ذات يوم استطاعت الشرطة إلقاء القبض على حسن عباس الكرباسي ، وهو يحاول لصق منشور للشيوعيين على جدار دار الدكتور صائب شوكت في شارع أبي نواس ، فحكم عليه لمدة ثلاث سنوات وظلت المطبعة بعيدة عن أعين الرقباء ومستمرة في طبع جريدة الحزب (القاعدة) ، وقد اشتدت الرقابة على مهدي هاشم ، وكان مهدي يستخدم صديقاً له اسمه حميد كاشف الغطاء وهو معلم متقاعد ، وكان واجبه أن يوصل ما يراد طبعه إلى الطباخ ، فألقي القبض عليه ، وإما بالتهديد ، أو الإغراء بتعيينه مفوضاً في الشرطة وكل

الذي طلبوه منه هو أن يأتي إليهم بكل ما يرسله مهدي هاشم للطبع ليستنسخوه ، ثم يأخذه بعد ذلك إلى الطباخ ليكون مستمسكاً بيد الشرطة عند المحاكمة ، وهذا ما قام به الشخص المذكور ، إذ ظهر مقال في القاعدة وصورة منه عند الشرطة ، وعلى أثر ذلك كبست المطبعة والقي القبض على الطباخ الذي أنكر صلته بهم وادّعى عدم علمه بالموضوع ، ثم ألقي القبض على مهدي هاشم وحُكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات ونفيه خارج العراق إلى إيران ؛ لأنّ أصله من قفقاسية الإيرانية . ولو أنّ إيران لم تعترف به ، وقد عُيّن حميد كاشف الغطاء مفوضاً بنجمة واحدة . واستأجروا له دارا ملاصقة للدار التي يتردد عليها مهدي هاشم لتسهل عليه المراقبة . وعلى أثر ذلك اختفى النشاط الشيوعي مدة من الزمن .

سأله الدكتور سامي بعد أن أخبره باعجابه لهذه المعلومات التي يسمع بها لأول مرة : طيب وما الذي حصل بعد هذه الأحداث المثيرة ؟

واصل محمد الدفاعي سرده للبذور الأولى لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي وكل من كان جالساً معهم مصغياً ومتابعاً لكل حرف ترسمه فرشاة لسان الدفاعي : جاء بعد هذه الحادثة عبدالحميد بعد أن طرد من روسيا ، وحاول أن يعمل له كتلة شيوعية . بيد أنّ الشرطة العراقية استطاعت استخدامه وتوظيفه بالضد من الشيوعيين ، كما فتح كتبة لبيع الكتب في شارع الأكمكخانة [٥١] ، وأخيراً لما أفتضح أمره أخذ ينشر علناً منشورات ضد الشيوعيين . وظل الحزب الشيوعي عديم النشاط والفاعلية حتى مجيء فهد (يوسف سلمان) من موسكو ، وقد تخرج من مدرسة اللغات الشرقية التي تخرج القاعدة للأحزاب الشيوعية ، وبعث في الحزب الحياة من جديد . وأسسوا مطبعة جديدة للحزب وأصدروا جريدة سرية باسم (الشرارة) على غرار النشرة التي كان يصدرها لينين وهي (الأسكرا) أي الشرارة . وقام فهد

بنشاط مدروس وموجه لنشر المبادئ الشيوعية والاتصال بالطبقات العمالية والفلاحين ، وبعض المثقفين ، وآلاف المنتشرين في القرى والأرياف .

سأله الدكتور سامي قائلاً : بحسب ما هو شائع ، فإنّ الحزب الشيوعي على خلاف دائم مع الدين . هل جاء هذا رشحاً لمقولة الدين أفيون الشعوب ؟

علت وجه محمد الدفاعي سحابة حزن ، فقطب حاجبيه ، ورمق الدكتور بنظرة حادة تتكئ على صبره المعهود في إجاباته على الأسئلة التي تستفزه أحياناً ، ثم ابتسم ابتسامة عريضة ليقول : دكتورنا الغالي في طول سنوات عدم الاستقرار التي تلت وثبة عام ١٩٤٨م ، وانتفاضة عام١٩٥٢م حاولت الطبقات الموجودة في السلطة التي تستفيد من الدين للإبقاء على الناس في قبضتها ولصد تقدم الشيوعية ، ومن الأمور ذات المغزى في هذا المجال أنّ المبادرة بهذا الخصوص جاءت من ممثلي القوة الإنكليزية لا من غيرهم ، إذ كتب ضابط الاستخبارات البريطاني B.B.RUY رسالة مؤرخة في٢٠ نيسان١٩٤٩م الى مدير الشرطة السرية العراقية ، يقول فيها : ((ولن تقتلع الشيوعية من جذورها بما يمكن ان نسميه الطرق البولسية وحدها ، ولن تفعل قوات الأمن من عندها إلاّ القليل لاجتثاث الشيوعية ، ولن تستطيع أكثر من المراقبة وانتظار نموها ، ثم تطبيق إجراءات تصحيحية)) . وكان من بين الطرق التصحيحية التي أوصى RUY بها ما سماه (**المعالجة الدينية**) وأصبح أكثر تفصيلاً وتحديداً ، ففي قوله : ((إنّ الشيوعية معادية للدين أصلاً على الرغم من أنّ الشيوعين في العراق بذلوا جهدهم لعدم إثارة مسالة الدين ، فأنه يبدو ان هذه المسألة قد تفيد الحكومة ضدهم)) ، وفي متابعة لهذا الخط قام السفير الإنكليزي السيرجون تروبتيك في وقت لاحق تحديداً يوم ٦ تشرين الأول عام

١٩٥٣م باتصال مباشر مع المرجع الشيعي الأكبر، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ، إذ زاره في مدرسته في النجف وناقش معه مسألة العدو المشترك (بحسب زعمه) التي انتشرت دعايتها السوداء ، والتي لا يدعمها أي منطق ، أو برهان ، ويقال أنّ السفير بذل جهده في أثناء المحادثة لكي يفرض اقتناع الشيخ بأنّ ((محاربة الشيوعية تعتمد على إيقاظ العلماء ، والقادة الروحيين ، وتحذير الشباب من هذه المبادئ التي تطيح بأوضاع العالم ، وضرورة توجيههم الصحيح في المدارس والنوادي)) ، ولم يكن الشيوعيون غافلين عن محاولات تعبئة القوى الدينية ضدهم .

سأله الدكتور سامي : وما الذي صنعه الشيوعيون إزاء ذلك ؟

همس في أذن الدفاعي جليسه في الجانب الأيمن ليخبره بوجود رجلين يبدو أنّهم من رجال الأمن من طريق ما لحظه هذا الجليس من مراقبة دقيقة لما يجري في هذه الجلسة ، وأكثر رمقات حدقاتهم صوبك يا أبا قاسم . أومأ أبو قاسم الدفاعي برأسه تصديقاً لما ذكره جليسه الأيمن مرسلاً له الإجابة بعدم الاكتراث لهؤلاء الصعاليك بلغة الإشارة من طريق التفاتة وابتسامة تهكم وإزراء بهم ، لحديثه مجيباً الدكتور سامي على سؤاله قائلاً : تجنب الشيوعيون بطريقة مدروسة توجيه حتى أصغر إساءة الى معتقدات الناس ، والواقع أنّه منذ العام ١٩٢٩م ابتعد الشيوعيون كلياً عن موضوع الدين .

بادره الدكتور بسؤال عاصف : لكنكم هاجمتم بعض الشعائر الدينية التي تمارس من قبل أكبر شريحة في المجتمع العراقي .

رد محمد عليه على الفور : جنابك تقصد ما حصل في سجن بعقوبة عام ١٩٥٤م ؟ في عزلة سجن بعقوبا الذي كانت يضم قسماً كبيراً من النواة الصلبة لكادر الحزب .

سأل صديق الدكتور المصور البعقوبي الشهير قائلاً : وما الذي حصل ؟ فلم أسمع به سابقاً ، وتقت لسماعه بلهفة من لطفك .

أومأ برأسه محمد الدفاعي ، وبدت سحب الألم تتموج في قسمات وجهه ، ونسائم أسف تهب من حدقتيه الخضراوين ، وبعد تناوله جرعة كبيرة من الخمر أشعل سيكاراً جديداً واسترسل قائلاً : جرى جدال فريد من نوعه حول الموضوع ، وليس عدلا ألاّ ندرجه بشيء من التفصيل إن يرق لكما ذلك ؟

نعم . نعم تفضل . قال المصور البعقوبي الشهير وصديقه الدكتور سامي .

قال محمد الدفاعي : إنّ الجدال دار بالتحديد حول مسألة(الأربعينات الحسينية) ، وتعلمون أنّها مسيرات حزينة بذكرى عودة رأس الحسين حفيد الرسول في اليوم الأربعين لمقتلة في ٢٠ صفر عام ٦١ من الهجرة ، وفي هذه المسيرات التي تجتذب إليها دوماً الحشود الكبيرة من الناس . تتنافس مجموعات من البلدات الرئيسة فيما بينها على تمثيل الحدث المأساوي ، فيقوم المئات منهم بضرب أجسادهم بالسلاسل ، والسيوف كفارة عن الآلام التي عاناها الإمام الحسين في معركته للباطل في ملحمة الطف التي جسدت المنازلة الكبرى بين الحق المتمثل بالحسين وأصحابه ، والباطل المتمثل بيزيد ومن قاتل دفاعاً عن حكمه الظالم ، ويبدو أنّ الجدل انطلق من ملاحظات عابرة حول هذه المسيرات الأربعينية لما ورد ذكره في مقالة منشورة في صحيفة السجن السرية كفاح السجين الثوري بتاريخ ٢ شباط من ذلك العام ، إذ كتب صاحب المقالة ((كثيراً ما يعبّر المفكرون الأحرار ، والثوريون الشرفاء عن مفاهيم اقطاعية من دون أن يعرفوا بذلك ، وهذا ما حصل لأن خيوط الفكر والثقافة الإقطاعيين تمتد عميقا في الزمن الماضي ، وتخترق كل

مجالات الحياة ، وما زال بإمكانك في هذه الأيام أن تقابل ثورياً مأخوذاً بسحر التقاليد البالية فيعلق ـ مثلاً ـ أهمية كبرى على حضور الأربعينيات الحسينية ، وفي حين أنه قد يلجأ إلى هذه المجموعة المحتشدة على أمل التسلل بينهم وجمع التواقيع لحركة السلام تجده خالياً من أية رغبة في تحرير الجماهير من التقاليد القديمة المهترئة التي يرتبطون بها ، ناسياً بذلك أنّ اجتذاب حشود واسعة الى احتفالات العزاء هذه يشكل ـ بحد ذاته ـ كسباً كبيراً لأعداء الشعب)) .

قال الدكتور سامي : هذا يؤيد ما ذكرته لك من القول أليس كذلك ؟

ابتسم الدفاعي قائلاً له : حلمك عليّ دعني أذكر لك صدى ما رشح من هذا المقال في الرد المطول على هذا الموقف في كفاح السجين الثوري بعد أكثر من ثلاثة أشهر . مع أنّ المسألة نوقشت كثيراً في عنابر السجن في تلك الفسحة الزمنية . كان الرد يحمل توقيع (الرفيق نصير) ، وعنوان (**ما هو موقفنا تجاه المسيرات الحسينية**) . يقول نصير : ((أثارت هذه المسألة الكثير من الخلاف داخل تنظيمنا ، والمشكلة هي ما إذا كان علينا أن نحارب هذه المسيرات ، ونستهدف وضع حد لها ؟ أم علينا أن نسعى إلى تحويلها من سلاح في أيدي الأعداء الى سلاح للحركة الثورية ، أشعر أنّه لكي نستطيع التغلب على هذه المشكلة لابد من أنْ نأخذ في اعتبارنا أنّ هذه المسيرات موجودة بغض النظر عن رغبتنا ، وتدل المؤشرات على أنّها لن تزول ، أو تتراجع في المستقبل القريب ، وعلى العكس من ذلك ، فإنّها سوف تزداد نمواً سنةً بعد أخرى ، ومن المؤكد أنّها سوف تستمر بعد إقامة الديمقراطية الشعبية في العراق ، والواقع انها استمرت في الوجود في روسيا لمدة خمسة عشر عاماً بعد تأسيس السلطة السوفيتية . إننا بمهاجمتنا لمعتقدات يجب ـ عند الحاجة ـ أن ندافع عنها بدلاً من أن ننبذها للتو ، إنما نعزل أنفسنا عن

جماهير الشعب الكادحة ، ثم إذا كان يستحيل اجتثاث المسيرات الحسينية ، فهل تستطيع تحويلها إلى شيء مفيد ، أو ولطرح سؤال أكثر صلة بالموضوع : هل من مصلحتنا ـ في الوقت الراهن على الأقل ـ اضعاف هذه المسيرات ، وخصوصا مسيرات كربلاء والنجف ؟

قاطعه الدكتور سامي بسؤال خاطف : وهل تظن ذلك ممكناً برأيك !؟

أجابه محمد الدفاعي والبسمة تشع من ثغره قائلاً : تناولت الجماهير العراقية في مدينة كربلاء العديد من الشعارات ، والأهازيج ، والتراتيل ، التي تنوعت في أهدافها ومضامنيها ، إلاّ أنّ معظم تلك الشعارات والأهازيج كانت دوماً معادية للنظام العارفي ، وإنْ تباينت حدّتها في ذلك ، ومثال على ذلك ما تردد من شعارات وأهازيج تتحدث عن تردي الأوضاع الاقتصادية بحلول اقتصادية ، ومعاشية جذرية للكادحين ، كما تطالب بضرورة الاستقلال الاقتصادي للعراق ، وانتهاج سبيل التطور الاجتماعي بعيداً عن النظام الرأسمالي العالمي . كما رفعت شعارات تدعو للاهتمام بالتربية والتعليم ، والاهتمام بوضع الشباب والطلبة ، والوضع الصحي ، ومحاربة الجهل والأمية ، كما ذكّرت بعض الشعارات الناس بعهد ثورة ١٤ تموز المجيدة ، والمؤامرات التي نظمها الأجنبي ضد ثورة الشعب كما ردد المتظاهرون ، فضلاً عن الشعارات التي تتحدث عن الوضع السياسي المزري ، وطالبت بإطلاق الحريات الديمقراطية ، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وإطلاق حرية الأحزاب التقدمية والوطنية ، وإجازة الصحف المحظورة ، وتحدثت جملة من الشعارات والأهازيج عن الظلم والاضطهاد والملاحقات والاعتقالات والسجن دون محاكمة ، كما تردد على ألسن المتظاهرين اسم سجن (نقرة السلمان) سيء الصيت ، كما وصف المتظاهرون بهتافاتهم أوضاع المعتقلين في

ذلك السجن الأسطوري ، ونددت شعارات أخرى بالاضطهاد القومي للقوميات العراقية غير العربية ، ولاسيما القومية الكردية والتركمانية ، ورفضت الجماهير التفرقة الدينية ، والطائفية ، وتناولت شعارات أخرى قضية الشعب الفلسطيني العادلة ، ونادت بضرورة تحرير فلسطين من المغتصب الصهيوني المدعوم من الامبريالية العالمية ، كما رفعت شعارات تحيي فصائل الثورة في كل بقعة من بقاع العالم ، وتحيي الانتصارات العملاقة التي حققتها البلدان الاشتراكية .

بدت الدهشة واضحة المعالم يلونها ذلك الإعجاب الكبير على وجه الدكتور سامي والسؤال الذي لم تقوَ أغلال صبر حبسه له ، فقال : وكل ذلك كائن في هذه المسيرات الحسينية !؟

هز رأسه الدفاعي مبتسماً وقال : نعم . نعم ، وهل تظن هذا كثيراً على ثورة مضت عليها القرون تلو القرون وجذوتها تزداد وتتسع على الرغم من التعتيم اللئيم لأقلام الطاغوت ، والسلطات الظالمة الحاكمة كسلسلة نارٍ مسرطن يتطاير منها شرر الجمر الخبيث .

مسرعاً أيّد المصور البعقوبي الشهير برأسه لما قاله محمد الدفاعي وقال : صحيح وكانت هذه العناوين الوطنية في هذه المسيرات والأهازيج التي تعج بها تطفح ، ولو كنت متذكراً لشيء منها لذكرته تعزيزاً لقولك يا أبا قاسم.

قال محمد الدفاعي : هل ترغبون بسماع بعضٍ مما أحفظه من تلك الأهازيج والشعارات ؟

نعم . نعم . هكذا تزاحمت إجابات كل جلسائه ، والشوق ينث من قسمات وجوههم .

أنشدهم الدفاعي ما كان عالق بذاكرته فقال :

كم شاب نايم بالسجن نايم ومن جرحه يون
ابنقرة السلمان للظلم عنوان
طاغي وجاير علشعب عارف جاير علشعب

شيعتك بالمية ثمانين حط الرتب شد النياشين
دايس عليهم بالخطر شوف الظلم والجور يا حسين

فرقوا بالوحدة ملايين احنه أهل ثورة العشرين
ثوار احنه ترى يا أمريكا وانكلترا
شوف الظلم والجور يا حسين
نفطنا والكمارك والموانيء سككنا والضرايب دخل ثاني
وين أرباحها تروح تخلي القلب مجروح
يدرون الشعب لو انتفض وثار يسدد ثورته وياه الأحرار

صف العراق بوحدته
يلي تفهمون وليش تخافون
ليش الجنوب بقوته
يضرب شماله بس وين العدالة
حلو المشاكل بالسلم
أحسن وسيلة خطوة نبيلة
بالقوة هتلر ما ربح
وبالجيش ماله بس وين العدالة [٥٢]

قال الدكتور سامي بعد أن تناولوا كؤوس الخمر ، وتبادل البسمات . لربما هذه وجهة نظر بعض أفراد الحزب الشيوعي . أقصد إنها لربما ليست ايدلوجيا الحزب ؟

قال محمد الدفاعي : لا . لا هذه الرؤية يمكن عدّها على نطاق أممي إنْ صح التعبير . دعني أذكر لك ما قاله لينين في مثل هذه الحشود الجماهيرية وكيفية توظيف زخمها وطنياً ، إذ قال : ((**افعل حيث توجد الجماهير**)) . ففي بلد كالعراق تمنع قوانينه الرجعية ، والفاشية التجمعات والتظاهرات إلا لأغراض دينية ، فإنّ من واجبنا أن نفكر جدياً بالاستفادة من هذه الإمكانات القانونية لصالح الحركة الديمقراطية ولقضية السلام ، وتجنباً من إثارة غضب المؤسسة الدينية ، فأن الحكومة ستتردد طويلا قبل التدخل بشأن هذه المسيرات . لقد استغل دستوريو نوري السعيد واتباع صالح جبر المسيرات بطريقة خاصة ، ونجحوا مؤخرا في بعض البلدات ، بشق الزوار الى جناحين في ظل هذه الظروف .

أليس من واجبنا تحشيد ووضع الجماهير ضد العصابات ، وضد أسيادها ؟ تساءل محمد الدفاعي وهو يحدق في عيني الدكتور سامي ، وأردف مسترسلاً : إنّ تاريخ حركتنا الثورية يمثل بحد ذاته شهادة على أهمية هذه الاجتماعات كوسيلة لأثارة الجماهير ضد الإمبريالية ، ففي أمثال هذه المناسبات يمكن أن يوزع أنصار السلام منشوراتهم ، ويجمعون التواقيع ، وينشرون أفكارهم التحررية ، وانا بنفسي لا انسى كيف أنّ هذه المسيرات سهّلت وغذّت ، وخدمت ، وبلورة هتافات التجميع ، فأزهرت انتفاضة تشرين الثاني من عام ١٩٥٢م .

هناك أيضاً جانب آخر لهذه المسألة ، لنفكر بالفائدة التي يجنيها الفلاح الذي لا يفكر أبداً بالذهاب إلى البلدة المجاورة لقريته ، ولكنه قد

يمشي مئات الكيلو مترات لزيارة سيد الشهداء الحسين عليه السلام في كربلاء . إنّ أفقه سيتسع بالتأكيد .. وقد يتخلى عن بعض المسلمات التي لخادعة في بيئته الإقطاعية ، ومن الراجح أن يعيد النظر فيها ، وسيتعرف كذلك ، وإن كان مصادفة أنّ هناك غيره من المسلمين في العالم الواسع ، وسيسمع عن مشاكلهم ، ونضالاتهم ، ثم ألم يثُر الحسين على الظلم ؟ ألا يثير هذا فيه إحساساً أكبر بظلم الأوضاع التي يعيشها ؟ كل هذا ، وفضلاً عمّا سيسمعه من الثوريين.

فتكون النتيجة صحة تحويل هذه المسيرات الى الحركة الثورية دون تجاهل باقي الأهداف الكبيرة لهذا الكرنفال الحيوي الذي لا ينضب .

وهم في نشوة ذلك الحديث الذي راق لهم من هذا الدفاعي محمد قطعه عنهم سيف الوقت داقاً جرس الافتراق منبهاً انتهاء أمسية نادي نقابة المعلمين لهذه اليوم على أمل لقاءات أخرى .

بعد عدة أيام سأل الدكتور سامي صديقه البعقوبي المصور الشهير عن محمد الدفاعي قائلاً : محمد الدفاعي دكتور في أي تخصص ! ، وفي أية جامعة يحاضر !؟

ابتسم المصور البعقوبي الشهير قائلاً : هو لم يكمل الصف الرابع الابتدائي !!.

صفق بكفيه ذلك الدكتور ، وقد سلبته الدهشة ، وعصف الحقيقة بعضاً من كياسته ، وهو لا يعرف كيف يستقبل هذه المعلومة التي لم يكن لها أي مسرح في توقعاته ، أو تصوراته ، وسأل صديقه بشيء من الحدة قائلاً : كيف ذلك ؟ وأين استقى معارفه المتنوعة ؟ خبرني بالله عليك ؟

من روافد بستان معارف هذا الرجل رغبته في التعلم ، فاستثمر كل ما يمكن استثماره سماعاً ، وقراءةً ، وحواراً ، ومن بواكير معينه المعرفي تردده الدائم على بستان طارق الطيار . تلك البستان التي يتصدرها مدخل تزينه

الورود من الجانبين وخلايا النحل المتناثرة ، حتى يواجهك مكان اللقاءات المتتالية لشخصيات أكاديمية وفنية من الرجال والنساء ، وأذكر منهم الفنان كنعان وصفي ، والمطرب الشهير ياس خضر ، إذا كان ذلك المكان موقعاً للحوار ، وتبادل الأفكار وتعميقها ، ومدرسة للتعليم والتجربة ، ومتابعة التجارب والأفكار الجديدة ودراستها واستيعابها ، وكان وسيطاً بين الحياة والثقافة وقتذاك ، في الوقت الذي غزت الوجودية أذهان المثقفين بنظريات فيها الكثير من الإبهام الفلسفي ، ولكن فيها الكثير من الحث على المخاطرة والتفرد والحصول على الترقي علماً وأدباً وفناً جماً . حتى تمكن صاحبنا من القدرة على قراءة النصوص الإنكليزية وفهمها . هكذا روى المصور البعقوبي الشهير بداية معين محمد الدفاعي ونبوغه ، فأثلج صدر صديقه الدكتور سامي الذي بلت وجنتيه دمعات سالت من حدقتيه بعيداً عن زكام النفاق ، وزحام السباق .

مناقشات حمر

(١)

كان شاباً آدم ، ممشوق القامة ، سومري الطلعة ، عاشقاً ولهاناً للمناقشات الحمر مع محمد الدفاعي لما يراه من سمات فيه سحرته ، ولا سيما جرأته في عرض أفكاره وقناعاته ، فأخذت تلابيب لبه ، فصار من خواص جلسائه ، وارتاح له الدفاعي للحد الذي صار يشكو له بعضاً من همومه أحياناً. ذات يوم وبعد أن رجع محمد الدفاعي من إيران بعد هروبه من الأجهزة القمعية ، وبعد أن علم بقرار الحزب الشيوعي العراقي الانضمام للجبهة مع حزب البعث عام ١٩٧٣م قرر الانفصال عن الحزب الذي سخر له كل ما يملك من وقت وجهد وطاقات وقدرات لتذهب آماله أدراج الحسرة والتأسف لما كان يتوقعه من الشريك الذي لا يؤمن بالشراكة ، بل هو غارق في الانفراد والتسلط والدكتاتورية حد الثمالة المجنونة حتى وإن سفك دماء رجاله الأولين !.

سأله الشاب الأسمر السومري الطلعة قائلاً : أراك تعباً يا أبا قاسم والهم يشع من وجهك الذي عهدته مشرقاً ببسمة دافئة . خبرني ما الأمر ؟

أجابه والحسرات تزاحم كلماته المثقلة السير على لسانه الذي بات أكثر ثقلاً مما ينسجه من كلام قائلاً : لقد تورط الحزب الذي عشنا من أجله في جبهة لعينة مع الحزب الدموي . حزب البعث الذي يقوده حفنة من الساديين المجرمين ، وكدت أفارق روحي كمداً على هذا القرار ، وكم غالطت نفسي وبقيت مصراً على زيف خبر انضمام حزبي إلى الجبهة الوطنية التي تحالف فيها الحزب مع حزب البعث الحاكم ، لكن قمر الواقع ، وشمس الحقيقة أشرقا ليبددا سحب ظنوني ، ولتتلاشى بعيداً في فيافي سماء السياسة ، التي طالما

تجْمَعُ الأعداء على فراش واحدٍ في شهر عسل المكاسب ، والمصالح الزائلة ، حتى وإن كانت دماء شهداء الطرفين ، يستضاء بشمعدانها في غزليات الليالي الحمر لشهر عسل مر المذاق ، ذلك الذي يحوز مرتبة سيء الصيت بامتياز ، وعلى الدوام .

وما ترك لي الحزب ولأمثالي إلاّ تركه والانسحاب منه ، وحدقاتنا تتفجر حزناً وخوفاً على ذلك الأمل الذي سطع في أرض الرافدين .

قال الشاب ملهوفاً : كيف ذلك ؟ هل تفسر لي ما تقوله ؟ لقد أفزعني وهالني ما تقوله .

رد عليه الدفاعي والدموع رهينة محبسيه ، محبس العيون ، ومحبس الحياء والاعتداد بالنفس قائلاً : بحسب تتبعي فإنّ الاتحاد السوفيتي مارس ضغطاً كبيراً على القيادة الشيوعية من أجل نصحها التوصل إلى حلول مرنة ومقبولة لموضوع الجبهة الذي عرضه حزب البعث ، وأدى هذا الضغط بطبيعة الأمر إلى انشقاق الآراء داخل الحزب الشيوعي حول الضغط السوفيتي وحده ، بل كان أيضاً معرضاً بين تموز ١٩٦٨م وحتى إعلان الجبهة في أيلول ١٩٧٣م ، أي لمدة خمس سنوات إلى الكثير من الملاحقات والاغتيالات ، والتصفيات في قصر النهاية إلى درجة أن المركز القيادي في الحزب في بغداد خلا لمدة غير قصيرة من أعضاء القيادة ما خلا بعض عناصرهم وهم ، زكي خيري ، وباقر إبراهيم ، وعدنان عباس ونزيهة الدليمي ، وكانوا لا يستطيعون التحرك إلاّ بصعوبة بالغة .

إنّ موقف قيادة الحزب الحاكم كان معروفاً ومعلناً ، وليس فيه أي غموض ، أو التباس ، وهو أن حرية الحزب بالوجود والعمل مشروطة بالموافقة على التحالف ضمن إطار الجبهة ، ولا يوجد أي خيار آخر سوى التصفية . لقد كان هدف البعث واضحاً ، وهو القضاء على أثر الشيوعية في

العراق ، وقد أقنع صدام حزب البعث على دعوة الشيوعيين لتشكيل حكومة الجبهة الوطنية ، وسمحت هذه الخطوة بإظهار العراق ، وكأنه يطبق سياسة واعية ضد الغرب ، والتي ضمنت معاهدة للصداقة مع الاتحاد السوفيتي الذي جهز السلاح لبغداد . ولكن في اليوم نفسه الذي وقع فيه الرئيس البكر ميثاق الوحدة الوطنية مع الشيوعيين وزع صدام نشرة بين أعضاء جهاز حنين بعنوان (كيف نقضي على الحزب الشيوعي) .

خرجت كلمات التأسف من فم الشاب الأسمر بالطلة السومرية متناغمة مع اندهاشٍ وحزن بان على وجهه مومئاً بطلبه مزيد التوضيح ، فالتقط الدفاعي تلك الرغبة ، وأردف مسترسلاً بعذب كلامه وكأنه حنظل وظفه القدر لأمثاله ، فقال : في خلال خمس سنوات أو أكثر ، سيتمكن البعث الفاشي من كشف كافة أسرار الحزب الشيوعي والتعرف على كل عضو فيه ، كما سيجبر الحزب الشيوعي بالتخلي عن منظماته الجماهيرية ، مثل نقابات العمال ، واتحاد الطلبة والشبيبة ، ورابطة المرأة ، والجمعيات الفلاحية ، وسيجبرهم على حل المنظمات الشيوعية في الجيش ، بل سيجبر الحزب الشيوعي على حمل السلاح البعثي بالهجوم على الحزب الديمقراطي الكردي وتقديم أعضاء الحزب إلى الموت دفاعاً عن الفاشية بغية قتل الأكراد .

قال الشاب : أو كل ذلك كائن يا أبا قاسم !!؟

نعم ، نعم يا صديقي أجابه الدفاعي ، وأضاف له : إنّ انضمام الحزب الشيوعي لهذه الجبهة لهو جريمة كبرى بحق الشعب العراقي ، لا لكونها تثبت الحزب البعثي الفاشي بالحكم فحسب ، بل لأنّ الحزب الشيوعي سيرفع سلاح البعث وسوف يتورط بقتل إخوانهم من أبناء الشعب الكردي في شمال العراق دفاعاً عن الفاشية . هكذا تورط الحزب في مستنقع الجريمة وسيفقد احترام شريحة كبيرة من أبناء الشعب العراقي إلى الأبد .

قال الشاب والأسى واضح على قسمات وجهه الأسمر : عصفت كلماتك المشوبة بحسراتك على ما مضى مسامعي وزادتني شوقاً لمعرفة المزيد عن تدخلات القيادة السوفيتية في الشأن الداخلي للحزب الشيوعي العراقي ، وآثارها التي بدت لي مدمرة لهذا الحزب .

أومأ الدفاعي برأسه وأشعل آخر سيكارٍ في العلبة التي تناول منها السيكار الأول مع بداية حديثها قائلاً : في الظروف الحساسة والبالغة الدقة والخطورة التي مرت على الحركة الشيوعية في العراق إبان عهد قاسم ، مارست القيادة السوفيتية التدخل المباشر لحمل قيادة الحزب الشيوعي العراقي على اتباع نهج يميني خاطئ إزاء سلطة قاسم ... وعلى سبيل المثال في آيار - حزيران ١٩٥٩م ، وحين انتقد بهاء نوري القيادة السوفيتية مطالبة الحزب الشيوعي العراقي المشاركة في السلطة بذريعة أنّ هذه المطالبة تطرف يساري كانت الأغلبية الساحقة من العناصر القيادية في الحزب تميل إلى انتهاج سياسة ثورية تفضي إلى استلام السلطة ، لكن الجميع كانوا يقدسون رأي القيادة السوفيتية ، وكانوا مستعدين للأخذ بها عملياً حتى وإن لم يقنعوا بها ، فيما كانت القيادة السوفيتية تشجع فقط على دعم نظام قاسم ، وليس على انتزاع السلطة للشيوعيين أنفسهم ... وهكذا فإن قيادة الحزب السوفيتي شاركت بقسط كبير في تحمل المسؤولية بدفع الحزب الشيوعي العراقي صوب الانحراف اليميني ، وبالتالي إضاعة الفرصة التاريخية أمام الشيوعيين في عهد قاسم ، وهكذا صار حال الحزب بعد أن وقع في مستنقع التبعية ففقد ثقة الشعب ، وانتهى بتسليم أعضائه إلى قصر النهاية حالما سيطر البعث الفاشي على الحكم في الثامن من شباط الأسود عام ١٩٦٣م كما تعلم .

رمق الدفاعي انكساراً في عنفوان الشاب الأسمر فسأله : هل بت لا تحتمل تلك الحقائق المحزنة ؟ أجابه مسرعاً : على الرغم مما أوجعت هذه

الحقائق قلبي ، والهبت تفكيري ، وزلزلت راسخات في معارفي ، إلاّ أنني أتوق للاستمرار في سمع هذه الحقائق لتنجلي غيوم عتمة تصوراتي ، فاسقني مما رويت ، أو مما تنث عليه من غيث معارفك يا أستاذي .

نهض الدفاعي ليتناول علبةً جديدة من السيكار الذي صار رفيقاً وملازماً لأنامله ، وبعدما جلس وأشعل سيكاراً جديداً قال ودموع سلكت طريقها صوب وجنتيه : كان الحزب الشيوعي العراقي حتى عام ١٩٥٧م يتمتع ببعض الاستقلالية ، على الرغم من قرارات الكنفرس الثاني للحزب ، مما حثّ الحزب السوفيتي من طريق تيريوشكين على المزيد من الضغط بغية إجبار الحزب العراقي بالتحذير تارةً على الرضوخ ، وهذا ما حدث فعلاً ، فبعد ثورة ١٤ تموز وارتفاع شأن الحزب الشيوعي العراقي ، والتفاف أغلبية الجماهير حوله في طول العراق ، وعرضه ألحّ السوفيت على على الحزب العراقي بضرورة تأييد عبدالكريم قاسم بصورة كاملة دون تردد . ففي كانون الثاني ١٩٥٩م سافر وفد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي إلى موسكو لحضور المؤتمر الحادي والعشرين ، الذي افتتح في ١٩٥٩/١/٢٧م ، وإلقاء كلمة الحزب فيه ، بيد أن الحزب السوفيتي رفض كلمة الحزب العراقي لعدم تطابقها مع سياسة الحزب السوفيتي إزاء التأييد المطلق لشخص عبدالكريم قاسم (ذلك الزعيم الذي سيطر على الحكم من طريق ((انقلاب القصور)) حسب تيريوشكين) ، فتم تأجيل موعد إلقاء كلمة الحزب العراقي لمدة يومين إلى أن أُجبر الوفد العراقي على القبول بالأوامر السوفيتية التي كانت تريد من الوفد تضمين كلمتهم الإشادة بعبدالكريم قاسم ، وقد رضخ الوفد أخيراً دون الاقتناع وسمى في كلمته عبدالكريم قاسم بابن الشعب البار .

(٢)

شغلت الشاب السومري مقولة ((**الشيوعية كفر وإلحاد**)) التي طالما تغنى بها المناوئون للشيوعيين ، ولاسيما القوميون منهم فتوى ، فقرر الشاب الآدم ذي الطلعة السومرية أن يناقش الدفاعي عن هذه المقولة ، ومصدرها ، ودواعيها ، وكل ما له صلة بها ، فقصده في متجره الذي اتخذه مهنة من المهن المتعددة التي مارسها كالنحلة التي تجمع رحيق الأزهار لتصنع العسل شفاءً للناس ، كان محمد الدفاعي يغير مهنه ليؤمن عيشاً مناسباً لأسرته الكبيرة [٥٣] ، ويساعد المحتاجين قدر المستطاع ، وكان من دواعي استئجار هذا المتجر اتخاذه مقراً لنشاطه السياسي من طريق توزيع جريدة (طريق الشعب) التي يصدرها الحزب الشيوعي العراقي ، واندكاكه بالمجتمع القروي الذي ينشط تواجده في السوق والمقاهي ، فضلاً عن ممارسته لدور التثقيف من طريق الرد ، أو الإجابة عن الأسئلة التي كثيراً ما يسأله بعض الطلبة الذين يدرسون الدراسة الأولية في الجامعات العراقية وقتذاك ، وغيرهم ممن يحب التعرف على ما يطرأ على الساحة السياسية .

ما كاد الشاب الآدم يصل متجر الدفّاعي حتى سلّم عليه والشوق بدا على ملامحه لما يرغب معرفته ، فرد سلامه الدفاعي وطلب منه الجلوس ، وما أن جلس حتى ناوله قنينة بيبسي كولا مبرّدة ، وقال له : أرى في مخبرك شاغلاً يشغل تفكيرك ، فهلا أخبرتني به ؟

تشجع الشاب الآدم وتبددت سحب الخجل والارتباك من سماء عزمه ، فسأله قائلاً : شغلتني مقولة الشيوعية كفر وإلحاد ، ولذا أريد معرفة مصدرها ، ومن ذا الذي قالها ، ولماذا ، ومناسبة ذلك ووو ... إلخ ؟

بدأ الدفاعي يسرد إجابته لأسئلة ذلك الشاب الآدم طالباً منه الإصغاء جيداً للظفر بلب الحقيقة ؛ لأنّ تلك الأسئلة لها من الأهمية بمكان كونها ستبقى ملازمة لسيرة ومسيرة الحزب الشيوعي العراقي ، فقال : يجب أن تعرف بأنّ الشيوعية الحديثة التي نضجها فلاديمير لينين انتقلت من الاتحاد السوفيتي إلى بقية الدول ، ومنها الدول العربية ، إذ تأسس الحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٠٢م ، ولكن هذا التأسيس لم يكن علنياً ، وفي عام ١٩١٢م أعلن عن تأسيسه باسم الحزب البلشفي بزعامة فلاديمير لينين وبعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م أصبح اسمه الحزب الشيوعي الروسي ، وبعد قيام الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٢م تم تغيير اسمه ليصبح اسمه الحزب الشيوعي السوفييتي بزعامة فلاديمير لينين ، ومن هذه الدول فلسطين ومصر ولبنان والعراق ، وأول فتوى صدرت بالضد منها كانت في مصر ، إذ أفتى المفتي الأكبر للأزهر الشيخ محمد بخيت ضد الشيوعية في آب عام ١٩١٩م .

ومن المعلوم أنّ الحزب الشيوعي العراقي كان قد تأسس في عام ١٩٣٢م ، أو ١٩٣٤م ، أو ١٩٣٦م ، وأول إفتاء صدر بالضد منه كان في عام ١٩٤٨م ، إذ أصدر محمد حسين كاشف الغطاء منشوراً شديداً حرّم فيه الشيوعية والانتماء إليها بعد مرور ١٢ ، أو١٤ ، أو١٦ سنة على تأسيس الحزب بروايات تأسيسه الثلاث ، ولم يكن تأثير فتوى كاشف الغطاء ذا بال ؛ لأنّ القلة القليلة تعرف بها بخلاف فتوى السيد محسن الحكيم .

سأله الشاب الآدم : يبدو أن القضية لها تفصيلات كثيرة بعضها مشهور ، والبعض الآخر مغمور ؟

أومأ برأسه الدفاعي ، والكلمات تكاد تتسابق من فمه فقال له : نعم . نعم . اسمع قصة فتوى السيد محسن الحكيم ، وكيف سوقها المستفيدون منها

سياسياً ، ولكنهم ألبسوها اللباس الديني ، وهم أبعد الناس عن التدين بأي دين كما أثبتت سياستهم الضالة طيلة مدة حكمهم الذي نرزح تحت وابل ظلمهم الأسود إلى يومنا هذا .

طيب يا أبا قاسم هانذا استمع إليك وكلي شوق لمعرفة الحقيقة تفضل . هكذا قال له الشاب الآدم .

قال الدفاعي : دعنا نتكلم أول الأمر عن قصة فتوى السيد محسن الحكيم ؛ لأنّ المقولة صارت قرينة له . هذه الفتوى شغلت الرأي العام العراقي ، وما زالت تشغله ، ولعلّها ستشغله لسنين أخرى تتصل ببقاء الحزب الشيوعي ومنافسته لغيره من أحزاب أخرى ، ولا سيما الأحزاب الدينية بغض النظر عن العمق المذهبي والعقائدي لهذه الأحزاب ؛ لأنّ مصلحتهما تلتقي بتسقيط الحزب الشيوعي في نظر الشعب .

تنهّد الدفاعي وهو يتناول سيكاراً جديداً ، وعاد ليكمل حديثه قائلاً : إنّ قصة الفتوى التي أصدرها السيد محسن الحكيم ، والقاضية بتحريم الانتماء إلى الحزب الشيوعي ليست مثلما شاعت ورويت قصتها عند البعض ، فهي لم تكن مثلما يقال عنها ، أو كما وظف لها على ألسنة السياسيين المؤيدين لها ، وحتى المناوئين لها على حد سواء ، فهي صدرت لطلب **شخص ليس له علاقة ، أو عداوة بالحزب الشيوعي** ، **وليس هناك قوى دفعت لإصدارها مثلما قيل أنّ البعثيين كانوا وراءها** ، فكم من الوقائع والأحداث التي تروى أخبارها خارج نطاق الواقع والحقيقة .

إنّ قصة الفتوى بدأت بأنّ بزازاً من أهل النعمانية التابعة لمحافظة الكوت في جنوب العراق في وقت انتشار الحزب الشيوعي العراقي وأفكاره التحررية من الرجعية والاقطاعية ، وكان الانتماء للحزب مكسباً من المكاسب التي يتوق لها الفقراء ، ولاسيما الطبقة العاملة الكادحة . جاء الرجل وكان ينوي

الانضمام إلى الحزب الشيوعي العراقي ، وكان ملتزماً متديناً ويقلّد السيد محسن الحكيم ، ولا بد له في مثل هذا القرار أن يلجأ إلى من يقلّده ليستفتيه ، فإذا كان يستفتيه في الوضوء والحج وأمور العبادة والمعاملات كافة فكيف بمثل هذا الأمر ؟ استفتى الرجل السيد الحكيم : هل يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي ، ولعلّ ذلك كان في نهاية عام ١٩٥٩م ، أو بداية عام ١٩٦٠م ، فأفتاه الحكيم تلك الفتوى التي يقول نصها : ((**لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي ، فإن ذلك كفر وإلحاد ، أو ترويج للكفر والإلحاد ، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك ، وزادكم إيماناً وتسليماً**)) ، فهي كانت خاصة بشخص واحد ، ولم يكن المقصود نشرها وتعميمها ، شأنها شأن بقية الاستفتاءات الشخصية ، استفتاه بها ونُسي أمرها ، وقد عرف هذا البزاز تكليفه الشرعي ، فاستفتى المرجع واحتفظ بما أفتاه بها .

بعد مدة من أخذ البزاز الفتوى ، واشتداد الخلاف مع الشيوعيين بالنجف ، تحرك الخطيب السيد جواد شُبَّر ، وكان من خطباء النجف الجماهيريين ، وهو والد كاظم شبّر الذي درس الاقتصاد ببريطانيا وكان شيوعياً ، وكان يخشاه طلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف عندما يزورون والده ، ولا يتكلمون أمامه بالشأن السياسي ، وأنّ والده أراد التخلص منه ، فبعثه للدراسة ببريطانيا بعد أن أنهى الدراسة الثانوية في النجف ، إذ كان منساقاً مع التيار الشيوعي وقتذاك ، إلاّ أنّه انقلب بعد ذلك .

كان للسيد جواد شُبَّر خلافات حادة ومواجهات مع شيوعيين بالنجف ، وكان يشعر بأذيةٍ منهم ، وقد حاولوا الاعتداء عليه ، فأراد فعل شيء ما ضدهم ، فذهب إلى السيد الحكيم كي يستخلص منه فتوى ضد الشيوعيين ، فلما أتاه قبّل يده وجلس عنده ، وطلب منه إصدار فتوى ، فقال له : أنا

كتبت مثل هذه الفتوى . فصاح على ولده مهدي الحكيم : هات الدفتر ، ويقصد دفتر الفتاوى ، فورّق ، أو تصفّح السيد الحكيم الدفتر ، وقال لجواد شبَّر هذه الفتوى التي تطلبها . كان نص الفتوى غير موجود في الدفتر ، وما موجود هو هو اسم الشخص الذي طلبها من الحكيم ، وتاريخها ، أما **نصها فغير موجود** ، وأنّ المستفتي هو بزاز من مدينة النعمانية.

كان عم السيد جواد ، السيد قاسم شُبَّر (قتل وعمره تسعون عاماً من قبل السلطة البعثية) عالم منطقة النعمانية ، وإذا بجواد يذهب من فوره منتقلاً من دار الحكيم إلى مرآب السيارات في النجف متوجهاً إلى النعمانية ، حيث عمه يقسم هناك ، ولما وصل سأله عن البزاز وعنوانه ، فبعث معه من يدلّه إلى دكانه في السوق ، فوصل إلى الشخص المقصود ، وسلّم عليه وجلس عنده وسأله : هل أنت الحاج فلان ؟

قال : نعم . هل أنت مستفتي السيد محسن الحكيم بفتوى من نوع الموقف من الشيوعية ؟ قال : نعم . فهل توجد عندك الفتوى ؟ قال : نعم . فسأله إذا كان بالإمكان استنساخها . فوافق الرجل .أخرج الفتوى من بين أوراق كان محتفظاً بها ، وأخذ السيد جواد بنسخة منها ، ومباشرةً توجه بها إلى بغداد .

توجه بالفتوى من النعمانية إلى بغداد ، وإلى الصحافة المعادية للشيوعيين مباشرةً ، وهي الصحف القومية ، وكان عبدالكريم قاسم حينها ليس على وئام مع الحزب الشيوعي العراقي ، وقد نشرتها تلك الصُّحف على وجه السرعة تحت عنوان (مانشيت) : فتوى الإمام الحكيم : ((الشيوعية كفر وإلحاد)) .

هذه قصة الفتوى ، وقصة نشرها وإشاعتها ، فلولا السيد جواد وذلك البزاز يغلب على الظن لم تصدر مثل هذه الفتوى . لكن كلّ الذين تحدثوا

عنها لا يريدون معرفة أسبابها ، وإنما جعلوها موقفاً منفصلاً عن أسبابه ، وكأن سرد ذلك يضعف من قيمة الفتوى ، أو يقلل من منزلة محسن الحكيم ، فهي صدرت بلا موقف ، ولكن بعد نشرها صارت تعبّر عن موقف كتحصيل حاصل .

كان أثر الفتوى بين الشيعة أكثر ؛ لأنّ أغلب الشيوعيين كانوا من الشيعة ، وهذا أمر طبيعي ؛ لأن نسبة الشيعة في العراق تصل إلى أكثر من ثلاثة أرباع سكانه تقريباً ، وقد وظفها البعثيون بشكل سيء للغاية ، لاسيما بعد انقلاب الثامن من شباط الأسود عام ١٩٦٣م ، وأخذ العديد من الشيعة ينقمون على المرجع الحكيم بسبب استغلالها من قبل الحرس القومي ضد أبنائهم ، وبل ومن المتدينين أيضاً ، والسبب هو تضرر أولادهم وأحفادهم منها ، لأنهم كانوا من اليساريين ، والشيوعيين [٥٤] .

أخذت الدهشة الشاب الآدم بالطلة السومرية ، وتزاحم سؤاله مع ابتسامته الواثقة قائلاً بتعجب : وهل هناك من الشيعة الذين قتلوا بفتوى السيد الحكيم ؟ ولماذا ؟

قال الدفاعي : هل تعلم بأن الشيوعية سرت إلى النجف ، وإلى بيوتات بعض علمائها ، وكما ذكرت لك أنّ السيد جواد شُبَّر كان ولده السيد كاظم من الشيوعيين ، وقد دخل الحزب الشيوعي النجف ، والمدن الدينية بقوة ، ففي غضون ١٩٥٩م كانت مقهى (حسين دوبة) بالنجف على الطريق الذاهب إلى الكوفة ملتقى شخصيات دينية يسارية ، ومن أصحاب العمائم ، ومنهم السيد كاظم الحكيم (عمّه السيد محسن الحكيم) . حتى أنّ أحد السادة الطباطبائيين النجفيين قال بيتاً من الشعر في قصيدة نونية طويلة ما قاله شاعر قبله ، ولا بعده قط ، وبيت الشعر هو :

إنْ كانَ لينينُ مدفوناً بأرضكُمُ فأنَّ لينينَ في أحشائنا دُفنا[٥٥]

بحذاقته سأله الشاب الآدم قائلاً : يا أبا قاسم ألا ترى أنّ الفاصل الزمني بين بداية تأسيس الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٣٢م ، أو ١٩٣٤م ، أو ١٩٣٦م وبين صدور فتوى السيد محسن الحكيم عام ١٩٦٠م يقرب من ٢٨ عاماً أو ٢٧ أو ٢٦ عاماً في أقل تقدير ، فأين كان العلماء من هذا الحزب ؟ ونحن نعلم أن هذا العمر الحزبي يكفي لإشهار الحزب ومعتقداته وأهدافه ؟

ابتسم الدفاعي لسؤال ذلك الشاب النبه وأجابه قائلاً : **أولاً** إنّ من وافق السيد محسن الحكيم بفتواه بعض الفقهاء من الشيعة وهم (السيد ميرزا عبدالهادي الشيرازي ، والسيد محمد مهدي الشيرازي ، والسيد محمود الحسيني الشاهرودي ، والشيخ عبدالكريم الجزائري ، والسيد أبو القاسم الخوئي ، والسيد عبدالله الشيرازي ، والسيد محمود جواد التبريزي ، والسيد محمد علي الطباطبائي) وأغلب فتاوى هؤلاء في نفس العام ١٩٦٠م . أما علماء السنة العرب الموافقين لرأي السيد محسن الحكيم فهم (الشيخ حمدي الأعظمي ، والشيخ عبدالقادر الخطيب ، والسيد فؤاد الآلوسي) والسنة الأكراد (الشيخ ملا صالح عبدالكريم ، والشيخ جميل المفتي ، والشيخ عمر عبدالعزيز ، والشيخ عثمان عبدالعزيز) . فيصبح مجموع من أفتى بكفر الشيوعية (١٦) عالماً (٩) شيعة (٣) سنة عرب (٤) سنة أكراد من بين الأعداد الكبيرة للعلماء التي تتجاوز المئات !؟ والسؤال هنا : لم هذا التوقيت لهذه الفتيا ؟ وجوابه واضح كوضوح الشمس في رابعة لنهار ، فقد قويت شوكة الحزب الشيوعي في حكم الزعيم عبدالكريم قاسم ، وباتت تهدد حياة الأحزاب المناوئة له ، فضلاً عما لحق من خطر كبير أصاب الجمود لدى البعض من رجال الدين .

سأله الشاب مجدداً : وهل هناك من العلماء من امتنع عن فتوى التكفير في ذلك الوقت ؟

نعم . نعم . قال الدفاعي ، ومن هؤلاء السيد حسين الحمامي ، ولو تأملت في ما صدر عن السيد محمد باقر الصدر في كتابيه الشهيران (فلسفتنا ، اقتصادنا) لتلمست الأفق الواسع والرحب ، والعلمية التي تنم عن المعرفة والانفتاح على أسس علمية رصينة ، فقد تصدى السيد محمد باقر الصدر للفكر الماركسي الشيوعي وألف كتابيه في مناقشة أفكار الحزب الشيوعي ومتبنياته حتى قال عنه أكرم زعيتر الأردني : ((لم ينازل الماركسية منازل عنيد أفضل من محمد باقر الصدر)) ، وله مؤلفات في مواضيع سياسية وفكرية وتاريخية ، فضلاً عن مؤلفاته الفقهية والأصولية ، ولم يكفر الحزب الشيوعي !؟

قاطعه الشاب الآدم ليقفز سؤاله كلمح البصر : وهل هناك في الوسط العلمائي مثل هذه العقلية التي تناقش الماركسية !؟ ، فإنني لأول مرة أسمع بهذا الأمر الذي زاد من دهشتي .

قال الدفاعي مومئاً برأسه : نعم هناك عالم آخر حذا حذو السيد محمد باقر الصدر ، وتقدم خطوة عليه ؛ لأنّه جاء بالنصوص الماركسية وردّ عليه ، بخلاف السيد محمد باقر الصدر الذي كان يناقش على ما فهمه من تلك النصوص [٥٦] .

طلب منه الشاب الآدم التفصيل أكثر عمن هذا الذي تقدّم على السيد محمد باقر الصدر ؟ قال الدفاعي : تصدى السيد محمد محمد صادق الصدر للرد على ما قام به الشيوعيون من ردود على كتابي (فلسفتنا ،واقتصادنا) في كتابه اليوم الموعود وهو أحد أجزاء سفره (موسوعة الإمام المهدي) ، وله مؤلفات كثيرة في الفقه والأصول ، والفكر والتاريخ والسياسة ، ولم يكفر

الشيوعيين أيضاً ؟ . ومما جاء في اليوم الموعود : ((تنبأت الماركسية بالمستقبل السعيد من زاوية النظرية العامة التي وضعتها لتفسير التاريخ المسماة بالمادية التاريخية ، التي جعلت خاتمة مطافها ذلك المستقبل . وتنبأت الأديان بهذا المستقبل من زاوية البرهنة على وجود قائد معين منقذ للبشرية من المظالم ومخلص لها من المشاكل ... وقد سماه الإسلام بالمهدي . والنتيجة بينهما واحدة)) . وفي قوله : ((لا ينبغي أن نختلف مع الماركسية في وجود المستقبل السعيد للبشرية بأي اسم سميناه ، فإنه من القضايا القطعية التي لا يتطرق إليها شك ، كما سوف نبرهن عليه ، وقد سبق أن أعطينا عنه جملة من التفاصيل في الجزأين السابقين من هذه الموسوعة . واتفاقنا مع الماركسية في ذلك ، هو الذي حدا بنا إلى الدخول في تفاصيل نظريتها ، لنرى ما إذا كانت الماركسية قد وفقت فعلاً في استنتاجاتها والمقدمات التي أوصلتها إلى التركيز على هذه النتيجة . وعلى أي حال ، فقد قلنا في مقدمة هذا البحث ، أن ذهابها إلى ذلك يعتبر إحدى نقاط القوة في الفكر الماركسي وأشدها إغراءً لجلب العقول إلى جانبها ، مضافاً إلى محاولة الماركسية استيعاب الكون والحياة بفلسفة واحدة متعاضدة ، وسنثبت غير بعيد ، أن نظرية التخطيط الإلهي العام تشتمل على كلا هاتين النقطتين من القوة ، مع وجود نقاط قوة أخرى كثيرة ، وعدم ورود أي إيراد من الإيرادات التي ذكرناها ضد الماركسية على نظرية التخطيط الإلهي ، ومن هنا تكون هذه النظرية قد توصلت إلى نفس النتيجة بمقدمات أصح وأمتن)) . وفي قوله : ((ومن هنا يود المؤلف ، بكل انفتاح ، تلقي النقد البناء المخلص من كل ناقد من ماديين ومتدينين ، عسى أن يتمكن من ملأ الفراغات التي تركتها جوانب النقص البشري في بحثه ... لو كان . لعلنا نتوصل من ذلك إلى القناعة بالنتائج الرئيسة الكاملة)) [٥٧] .

قال الشاب الآدم : على الأرجح يا أبا قاسم ، فإنّه لا يمكن صدور ما نسب إلى الأعلام من فتاوى تبيح قتل أناس ولدوا على فطرة الإسلام ، ونشأوا في مجتمع إسلامي ، وفي بيوت مسلمة ، وفي نهاية الأمر يقتلون بفتوى إسلامية . إنّ ما يروج على ألسنة الفقهاء العلماء لا يقتنع به من له معرفة أولية في فقه الشريعة الإسلامية . وقد يفاجئ به إذا سمعه للوهلة الأولى ، ويبنى موقف مضاد مبني على الثوابت الإسلامية . إنّ المقنع الدائم للحقيقة أنّ موقع تلكم الفتاوى ، ومصدرها الصحيح الأرشيف المعني في تلك الأكاذيب ونشرها بين الناس ، ولا فرق في الأيديولوجيا البعثية السياسية والمؤسساتية بين نشر الأكاذيب المفتعلة كهذه الفتاوى ، والشروع بالرصاص الحي على الخصوم الأكثر عناداً ورفضاً لهم ، ولم يعد هناك أهمية في نظرهم لكثرة الضحايا ، ويعدون ذلك موقفاً دفاعياً عن نظامهم السياسي في العراق .

شكر الشاب الآدم بالطلة السومرية أبا قاسم محمد الدفاعي على ما فصله في هذه المسألة الشائكة واستأذنه على أمل اللقاء في مناقشة مسألة أخرى . وقبل أن يلملم وداعه أشار الدفّاعي بسبابته قائلاً : التاريخ لا تصنعه الكلمات الجوفاء والوعود الطنانة ... تصنعه الإرادة الفولاذية والقلوب التي لا تعرف غير الحقّ .

وكانت النهاية

في شهر تموزي من أشهر العراق التموزية الحافلة بالأحداث القلقة ، والمفاجئة . كان تموز عام ١٩٨٨م الشهر قبل الأخير لانتهاء الحرب العراقية الإيرانية . تلك الحرب التي فجعت العراقيين والإيرانيين بما خلفته من دمار ودماءٍ ، وثكلى وأرامل ، وأيتامٍ وكهولٍ يئست عقولها وقلوبها من أن يكون لهذه الحرب نهاية .

كان محمد الدفاعي يملك سيارة بيك آب ذات حمولة طن واحد بيضاء مثل قلبه الناصع بياضاً مستأجراً سائقاً سودانياً حالك السواد . فقد اعتاد أن يستأجر بستاناً ، أو أكثر من بساتين الدجيل الشهيرة بالعنب الكمالي ، وبيض الحمام ، وديس العنز ، والعجيمي ، والعنب الأسود ليجني محصولها من هذا العنب ويسوقه إلى بغداد في علاوي بيع وشراء الخضراوات والفواكه . حاله حال الكثير من الفلاحين .

مر موسم عام ١٩٨٨م ثقيلاً هذه المرة ، قالها الدفاعي مرة والسوداني يسمعه : لا أدري أشعر وكأن هذا الموسم ثقيل ليس كباقي المواسم الأخرى التي مرت . هز السوداني برأسه مبدياً عدم معرفته بما يقصده الدفاعي .

في صباح يوم السابع والعشرين من هذا الشهر الثقيل لمح محمد الدفاعي السائق السوداني قد تعثر أكثر من مرة عندما يمر من أمامه في البستان التي يحمل العمال صناديق العنب الذي جنوه منها . سأله قائلاً : ما بك ؟ هل تشعر بشيء ؟ مريض مثلاً ؟ تتالت أسئلته لهذا السوداني . فقط هز رأسه بالنفي وقال : لا . لا يا عمو محمد ما في شيء .

ركب محمد السيارة تعباً واضعاً جاكيته في حضنه وانطلقت السيارة البيك آب البيضاء من الدجيل صوب بغداد بعد الساعة الحادية عشر صباحاً . في

الطريق تناول الدفاعي أكثر من سيكارٍ ما بين تثاؤب ونعاس واضح ، ثم خلد إلى النوم على يديه اليمين التي وضعها على باب السيارة الأيمن بعد أن أنزل زجاج الباب إلى الأسفل .

كان السوداني يمسك مقود السيارة جاثياً عليه خائفاً يترقب ، كأنّه ينفذ أمراً دبر بليل .

بعد الساعة الواحدة ظهراً مرّ عبدالأمير محمد الطاهر ابن الهويدر . ذلك الشيوعي الذي يجل ويحترم ويحب الدفاعي كثيراً على الرغم من أنّه ترك الحزب الذي ينتمي له . شاهد من بعيد حادث سيارة مقلوبة على جانب الطريق المقابل لمعسكر التاجي والعنب متناثر فيها وبالقرب منها . توقف من فوره بعد أن هوى قلبه ، كأنّه علم بالفاجعة .

نزل مسرعاً فشاهد محمد الدفاعي صريعاً مضرجاً بدمه لوحده . صاح الفتى وقد تجمّعت في عينيه الدموع : أين السوداني اللعين ؟

اختفى السوداني من ذلك اليوم إلى يومنا هذا في المجهول !. ولا زالت الأسئلة حيرى : كيف نجا ؟ وأين ذهب ؟ ولماذا لم ينتشل سيده ؟ أو يخبر أحداً . مركز شرطة ، أو أية جهة أخرى ؟

سأل عبدالأمير بعض المتجمهرين قرب الحادث : أين السائق السوداني ؟ هل رآه أحد منكم ؟ ماذا فعل ؟ تزاحمت هذه الأسئلة مع عاصفة الغضب التي تملكت قوامه الممشوق . قال أحدهم : رأيته ولى هارباً صوب تكريت . فقد ركب بسيارة أجرة واختفى عن الأنظار .

حل المساء على القلعة ذلك اليوم كئيباً ثقيلاً ، كأنّه يحمل خبر موت الدفاعي . عند الغروب صعق أسرته خبر موت راعيها . ذرفت الدموع ، وتعالت أصوات النياحة ، ولطمت الرؤوس والصدور ، وشيعت جنازة محمد الدفاعي إلى مقبرة الشريف في الجانب الشرقي للنهر . ذلك النهر الذي ولد في

جانبه الغربي قبل أكثر من ثمانية عقود من السنين . ولد ، ودفن قرب النهر ما بين مشرقه ومغربه .

ما وراء السطور

١. أحد فروع دجلة الرئيسي ويتكون من مياه نهر تانجرو وسيروان وبعض الأنهر الصغيرة الأخرى . يبلغ طوله ٣٨٦كيلو متراً ويتصل بالنهر عند نقطة تقع على مسافة ٣١ كيلو متراً ، مؤخر مدينة بغداد . ورد اسم هذا النهر بصيغة (تامرا) في مصادر عديدة ، وهو اسم سرياني (أرامي) كما ورد اسمه في بعض المصادر الأخرى بصيغة (جنديز: وهو مجرى ماء نابع في جبال الماتين Matienian Mountains ويمر بأرض الداردين Dardanians ويصب في نهر دجلة . وبعد أن يختلط ماء جنديز بماء دجلة يمر على مقربة من اوبس ثم ينتهي في البحر الأريتري... ومما هو جدير بالذكر أن اسم ديالى ينسب إلى هذا النهر الذي يسقيها ويروي أراضيها ويسقي مزارعها . وأخيراً ورد في كتاب رحلتي إلى العراق هذا الاسم بنهر arba واسم Delas ديلاس وهو أصل نهر ديالى الحالي(أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، المحامي جمال بابان ، ج١، ص١٢٠ ـ ١٢١).

٢. استملكت بلدية بعقوبا المقاطعة ١٩ خان اللوالوة ورقة صالح غرب نهر ديالى من وزارة المالية نحو ١٩٥٦م لغرض تقسيمها قطعاً وتوزيعها بيعاً بأثمان قليلة إلى الموظفين والمستخدمين الذين لا يملكون دوراً سكنية ولم يتم البيع (تاريخ بلدية بعقوبا ، السيد أحمد الرجيبي ، ج٢ ،ص٩٢) . وفي ٢١ صفر ١٣٧٩هـ الموافق ٢٥ آب ١٩٥٩م ألفت لجنة من رئيس البلدية ومعاون متصرف اللواء للإدارة المحلية وأعضاء آخرين للقيام بمهمة توزيع تلك الأراضي ، وهذه الأراضي كانت موقع بعقوبا الغربية في العهد العباسي المسماة بعقوبا الجديدة حالياً (ينظر المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ١٨ ـ ٢٠).

٣. الهويدر : قرية كبيرة من قرى ناحية مركز بعقوبا تقع من الشمال من بعقوبا على بعد حوالي ٥ كيلومترات وقد أُنشأت هذه القرية على ما يظن سنة ٩٢٩هـ ـ١٥١٠م ، واسمها مأخوذ من هوادر ، أي مجمع الهوا ، وقيل : أنّ اسمها تركي جاء من هواء أيدر اي الهواء العذب ، وهذه القرية من متروكات نهر ديالى بعد أن تغير مجراه (أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، لجمال بابان ، ج٣، ص٧٩) وقال الرجيبي: سميت قرية الهويدي نسبةً إلى الشيخ علي الهويدي ، وبعد سنة ١٢٣٥هـ الموافقة لسنة ١٨٢٠م صحفت إلى الهويدر . تاريخ بلدية

بعقوبا في العهد العثماني ، للسيد أحمد الرجيبي الحسني ، ج١ ، ص٣٠ . وجاء في كتاب (من تاريخ بعقوبا وما حولها ، للأديب اللغوي الحقوقي طه هاشم الدليمي ، ص١٥٠) : ذكر المؤرخ البعقوبي المرحوم أحمد الرجيبي في تاريخ بلدية بعقوبا أنّ الدكتور مصطفى جواد وقف على مخطوطة في دار الكتب الوطنية بباريس اسمها (تذكرة المقتفين لآثار أولي الصفا وتبصرة المقتدين في سيرة أبي الوفا تاج العارفين) المتوفى سنة ٥٠٥هـ ومؤلف هذه التذكرة هو : شهاب الدين أبو الهدى الشيخ أحمد بن عبد المنعم الواسطي المعروف بابن الشبرسي ، وأنّه أتمّ تأليف هذا الكتاب في سنة ٧٧٣هـ وقد ورد في هذه التذكرة ذكر الشيخ علي الهويدي ، وقد ذكر المؤرخ أحمد الرجيبي أنّ قرية (الهويدر) سميت باسم هذا الشيخ ، ولا أدري أهذا من تحقيقات الدكتور مصطفى جواد ، أم من تحقيقات السيد أحمد الردجيبي (رحمه الله) ، ومهما يكن من أمر فالقضية تحتاج إلى شيء من البحث والتحقيق . وجواباً لتساؤل الأستاذ اللغوي الأديب الحقوقي طه هاشم الدليمي ، فإن الدكتور مصطفى جواد رحمه الله لو كان ذلك ثابتاً عنده لذكر ذلك كما هو ديدنه في تحقيقاته ، ولأشار لذلك السيد الرجيبي بكل تأكيد ، وما ذكره السيد الرجيبي رحمه الله يعدّ منه اشتباهاً في ذلك بقرينة تسميتها التركية كما ورد في كتاب أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، لجمال بابان ، ج٣، ص٧٩ ، ولعل الأصل هو الشيخ علي الهويدري بحسب قواعد النسب في اللغة العربية ، فسقطت الراء في النقل ، واحتمال اسم الهويدر (الهويدة) توافقاً مع الهويدي نسبةً بعيد ، والله العالم (المؤلف) .

٤. بالفتح ثم السكون، وضم القاف، وسكون الواو، والباء موحدة، ويقال لها باعقوبا أيضا : قرية كبيرة كالمدينة ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من أعمال طريق خراسان، وهي كثيرة الأنهار والبساتين، واسعة الفواكه متكاثفة النخل، وبها رطب وليمون، يضرب بحسنها وجودتها المثل، وهي راكبة على نهر ديالى في جانبه الغربي، ونهر جلولاء يجري في وسطها، وعلى جنبي النهر سوقان، وعليه قنطرة، وعلى ظهر القنطرة يتصل بين السّوقين، والسفن تجري تحت القنطرة إلى باجسرا وغيرها من القرى، وبها عدة حمامات ومساجد، وينسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم: أبو الحسن محمد بن الحسين بن حمدون البعقوبي قاضيها، روى عنه الحافظ أبو بكر الخطيب، وقتل بحلوان في شهر ربيع الأول سنة ٤٣٠، وبعقوبا هذه هي التي ذكرها سعد بن محمد الصّيفي، وهو الحيص بيص، في رسائله السبع يسأل

المسترشد أن يهبها منه وعوّض عنها بمال فلم يقبله، وقرأت بخط أبي محمد بن الخشّاب النحوي أنشدني أبو المظفر بن قرما الإسكافي قال: أنشدني المهدي البصري لنفسه يهجو أهل بعقوبا:

ألا قل لمرتـــاد النّوال تطوّفـــــــــا ... يقلقلـــــه همّ عليه حريـــص
تخاف ببعقوبا ، إذا جئت معشـــــرا ... لهمّ يبيت الضّيف، وهو خميص
أبو الشّيص لو وافـــاهم بمجـــاعة ... لأعوزه ، بين الحدائـق ، شيص
ولو خوصة من نخلـــها قيل قد هوت ... لقيل عشار قد هوين وخـوص

معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، ج١، ص٤٥٣.

٥. دليل المملكة الدليل الرسمي للعراق لسنة ١٩٣٦ ، ص٢٤٤. يرى المؤلف أن تشييد المستوصف الصحي قبل عام ١٩٣٥م بقرينة صدور الدليل عام ١٩٣٦م ، ولم يعثر على وثيقة تؤرخ سنة تشييده .

٦. البستاني والد الراوي أحمد رشيد الخفاجي ، والناطور توفي رحمه الله بعد والدي بأكثر من ثلاثين سنة بعد أن خلف ولدين وست بنات ، وعدداً الأحفاد.

٧. حمرين : سلسلة جبلية بل هي سلسلة تلول جرد وكانت تسمى سابقاً (كاردا) ويعتبر الحد الفاصل بين كردستان عن بقية أنحاء العراق . وتسمية حمرين جاءت من احمرار التراب الذي يغطي بعض أنحاء الجبل ... وجبل حمرين يخترق من أواسط العراق من الشرق قاطعاً نهر دجلة عند الفتحة واسمه مأخوذ من حمرة تربته ، وقد عرف هذا الجبل لدى البلدانيين العرب بجبل بارما . وهذا الاسم قد يرد إلى الكلمتين الآراميتين (بيث ـ رمان) أي (معبد رمون) وربما كان فيه معبد آشوري ، وسمى الآشوريون هذا الجبل (ايالمان Ialman) ومن أسماء هذا الجبل أيضاً (سانترما) ، وهي لفظة آرامية من (شاتي ـ دما) أي (شارب الدم) ، وكأنها تلمح إلى احمرار لونها (أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، جمال بابان ، ج١،ص١٠ ـ ٣٣) . يرى المؤلف أنّ تسمية الجبل بشارب الدم نسبة لاحمرار تربته لا تتوافق مع الكثير من الأراضي التي امتازت بالتربة الحمراء في عدة مواقع من بلاد الرافدين أيام الآشوريين ومن أبرزها بابل ، فلِمَ انفردت هذه المنطقة ، أو هذا الجزء من الجبل بهذه التسمية ؟ ، ولعل السبب في تسمية الجبل بشارب الدم حصول معركة في المكان الذي

تكون تربته حمراء قتل فيها أعداد كبيرة صبغت دماؤهم تلك البقعة منه لمدة من الزمن فجاءت التسمية تبعاً لذلك .

٨. قضاء الخالص تبعد عن بعقوبا ٢٠ كيلو متراً شرقاً ... يكتبها ويلفظها بعضهم (ديلتاوة) أصلها (دولة آباد) ثم جرى عليها التصحيف اللفظي فأصبحت دلتاوة . وهي من قرى النهروان في قديم الزمان ، ولاسيما في عهد بني العباس ولم تذكرها معاجم البلدان المعروفة ، كما أنّ المؤرخين لم يذكروها وقد عثر على اسمها منقوراً في جدران مصلى المدرسة المرجانية المعروفة اليوم بجامع مرجان في بغداد ، فقد نقر مرجان وقفية مدرسته على تلك الجدران وأوقف (دولة آباد) و(نعمتآباذ) وغيرهما على مدرسته المذكورة ، والوقفية مؤرخة في ٧٦٠هـ ـ ١٣٥٨م من عهد السلطان أويس بن الشيخ حسن الكبير مؤسس الدولة المغولية الجلائرية في بغداد(ينظر : أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، جمال بابان ، ج١،ص١١٦ ـ ١١٧) . وأنّ أكثر العوام يلفظون (تيلتاوة) بدلاً من (دلتاوة) كما هو معلوم .

٩. عبدالحميد بن رشيد بن مهدي السعد الشيباني . أسندت له رئاسة بلدية بعقوبا وكالةً عندما كان يشغل فيها العضوية في أوائل مايس سنة ١٩٥١م ومكث يزاول شؤون الرئاسة إلى نهاية حزيران من السنة نفسها (ينظر : تاريخ بعقوبا ، السيد أحمد الرجيبي ، ج٢،ص٨٤).

١٠. الدكتور طلعت الشيباني ، وزير تخطيط سابق ، باحث قانوني اقتصادي ، ولد في قرية الهويدر في محافظة ديالى سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م ، انتمى إلى جامعة انديانا بأمريكا وحصل منها على الدكتوراه بالقانون ، مارس التدريس فترة ، وبعدها عين في وزارة المعارف والإعمار ، وفي عام ١٩٥٤م فصل من الوظيفة لمدة ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها مديراً عاماً لاتحاد الصناعات ، عين وزيراً للإعمار في أوائل ١٩٥٩م ، ثم وزيراً للتخطيط ، نشر عدداً كبيراً من دراساته في المجلات والصحف المحلية والعربية ، وكانت أطروحته للدكتوراه ، باللغة الإنجليزية ، بعنوان : ((المحكمة العليا في العراق والمحكمة العليا في الولايات المتحدة ـ دراسة مقارنة)) توفي ١٩٩٢م . معجم مؤرخي الشيعة ، لصائب عبدالحميد ، ج١ ، ص٤١٠. أخبرني ابن عمي الحاج إسماعيل خليل الخفاجي قائلاً : في أثناء دوامي عندما كنت عسكرياً ، وأنا أذهب إلى المعسكر منتصف الليل ، إذ كنت ساكناً في بغداد منطقة

الطوبجي شاهدت سيارة واقفه في ساحة قريبة من مكان توقف سيارات الأجرة ، وكان ضوء السيارة منيراً صوب جهة ما ويف قريباً منها رجلان يتحدثان ، فأخذني الفضول لمعرفة من هما ؟ وعندما اقتربت منهما عرفت أنّهما الزعيم عبدالكريم قاسم والدكتور طلعت الشيباني وسمعت الزعيم يقول للدكتور طلعت إلى متى نستورد قواعد السكك الخشبية من الهند ؟ لنبني في هذا المكان معملاً للقواعد الكونكريتية (المصنوعة من الاسمنت والحصا والرمل والحديد) بديلاً لها ، حتى نوفر فضلة الفارق في مبالغ الشراء والاستيراد (المؤلف).

١١. ينظر : تاريخ بلدية بيعقوبا في العهد العثماني ، للسيد أحمد الرجيبي الحسني ، ج١ ، ص٥٣.

١٢. أُصْطة : واحد الأُصْطَوات وهم أساتذة العمل ورؤساؤه وأصحاب الصناعات .. وفي تثنية اللفظ يقال ((اصطوات اثنين)) ، وربما قالوا ((أُصطواتين)) (معجم اللغة العامية البغدادية ، ج١، ص٢١٥ ـ ٢١٦) ، وأُسطة : ريس أو رئيس ، معلم (معجم المصطلحات والألفاظ الأجنبية في اللغة العامية العراقية ، ص٢٣).

١٣. ولد في قرية الهويدر سنة ١٩٣٠م ونشأ فيها . درس الابتدائية في مدرستها ، وأنهى دراسته الثانوية في بعقوبة ، ثم التحق بكلية الآداب سنة ١٩٥٢م ، وحصل على شهادة البكالوريوس بدرجة جيد سنة ١٩٥٦م ، والتحق بكلية الاحتياط ، ولما أنهى المدة المقررة عاد للتعليم فعين مدرساً على الملاك الثانوي في متوسطات بعقوبة ، ثم مديراً لمتوسطة الهويدر ، فمديراً لمتوسطة خرنابات ، ثم معاوناً لمتوسطة الشريف الرضي . شاعر مقل مجيد ، بعيد الغور ، له نظرة خاصة بالحياة والزواج ، ساكن الطبع يرى أنّ الشعر ينبغي أن يبتعد عن الفحش والمبالغة في أي غرض كان ليكون قريباً من واقع الإنسان كي يستسيغه ويتحبب إلى قلبه (شعراء ديالى ، خضر الكيلاني ، ج١ ، ص٦١).

١٤. ولد في قرية الهويدر عام ١٩٣٨م ونشأ فيها ، وأتم دراسته الابتدائية في مدارسها والمتوسطة في بعقوبة والاعدادية في بغداد ، ثم التحق بالدورة التربوية لما بعد الدراسة الاعدادية ، وتخرج معلماً للابتدائية ، فعيّن في مدرسة زاغنية الابتدائية ، وتنقل في مدارس متعددة من اللواء حتى القت به عصا التطواف في المدرسة التي درس فيها أيام طفولته . لقد أحب الأدب وقرأ منه الشيء الكثير وفتن بالجيد منه وهو لمّا يزل طالباً في

المتوسطة ، وقد كان لجوّ قريته الهادئ الشاعري أثر في إذكاء شاعريته ، فإنّ قريته تحفل بشعراء كثيرين أمثال أكرم مبارك ، وعلي مبارك ، وكاظم إبراهيم ، وعبود عبدالكريم الذين اتخذوا من مقاهي القرية نوادي أدبية حتى أصبح لكل منهم رواة ومريدون يرددون أشعارهم في كل مناسبة وأخرى . وقد سمعت للشاعر قصائد كان يرددها زملاؤه وكلهم يحفظها عن ظهر قلب ويرددها في كل مناسبة ، وكنت أتشوق لرؤيته فتقصدت قريته لمحادثته فعظُم الرجل في عيني حيث وجدته شاعراً خنذيذاً فهو إضافة إلى النظم الجيد فإنّه يحفظ الكثير من أشعار العرب (المصدر السابق ،ج١،ص٥) . كان نعم الجار والمربي درّسني في الابتدائية درس اللغة الإنكليزية في الصف الخامس وكنت أشاهد أفلام كارتون في داره مع ولده المهندس علي ؛ لأنّ جهاز التلفاز وقتذاك لا يملكه إلاّ الأسر الموسِرة .

١٥. الأدب الشعبي العراقي ، ماجد شبر ، ص٣٩.

١٦. المصدر نفسه ، ص٣٨.

١٧. ديوان أبو نواس. ص٧٠١.

١٨. نعناع الماء : البطنج ، بقلة ذات رائحة نفاذة ، تجفف ، ويذر مسحوقها على الباقلاء واللوبيا المسلوقة ، ولا يخلو منها بيت بغدادي ، والكلمة فارسية : پوتنك (موسوعة الكنايات العامية البغدادية ، عبود الشالجي ، ج١ ، ص٦٤٣) . وعندما كان العراقيون يعتمدون على الطب الشعبي ، استعملوه لوجع البطن ، وذلك بوضع مقدار منه في الماء المغلي فيشربه المريض فيزول وجعه (جمهرة الأمثال البغدادية، عبدالرحمن التكريتي ، ج٢ ، ص٩٢). ومن أشهر الأمثال التي ورد فيها ذكر البطنج : ((حيّة وبطنج)) ؛ لأنّ : المشهور أنّ الحيّة لا تقترب من البطنج لما تشعر به من شدة مقتها له وكرهها إيّاه ، ويقال أنّ الحيّة إذا شمّت البطنج فإنّها تموت لساعتها (الأمثال البغدادية ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، ج١ ، ص١٥٩) .

١٩. رضيو : تصغير لرضا ، وهو رضا جواد جارالله الدليمي خال الراوي ، وكان شيوعياً جلداً صدامياً توفي عام ١٩٨٢م بحادث سير يشوبه غموض .

٢٠. الچراوية : غطاء للرأس يعتمر به وهو من الأزياء الشعبية ، وقوامه أن يطوى اليَشْماغْ على العَرَقْجينْ الذي يوضع على الرأس عدة طيات . ولكل نوع من طياته اسم .. ويرى الأب أنستاس ماري الكرملي أنّ اللفظ من الكرويـة في الفصيح .. وقال ((يعقوب نعوم

سركيس)) إنّ الكلمة من چارْ أي أربعة ومن ويه أي مرة بالفارسية .. أي أربع مرات أخذاً من كون الچراوية تلف على الرأس أربع لفات . ويرى عبدالرزاق الحسني أن التسمية ناشئة من النسبة إلى رجل كركوكي كان يسكن بغداد اسمه عارف وكان مشهوراً بالدعارة والشجاعة فمرَّ ذات يوم على سبيل ماء مع صحب له وبعد أن شرب من هذا السبيل أراد أن يقول لأصحابه ((چَرْعُوا)) ـ أي اكرعوا ـ فقال ((جَرُّو)) لأنه لم يكن يحسن العربية فأخذت الناس عليه هذه الكلمة وألصقوها به ، ولما كان يلف يشماغه بهيئة خاصة به أخذت عنه تلك الهيئة وسميي بلفظ چَرّاويَّة ـ كل هذا قول الحسني ـ ثم قال وهي اللفة المستعملة عند سكان باب الشيخ في بغداد .. إنّ قول الحسني هذا يبدو أنّه استقاه من أفواه فريق من العامة ممن حسبوا أصل اللفظ هو هذا . ونقل التكريتي ـ عن جريدة حبزبوز ١٩٣١ ـ إنّ النسبة إلى جّرَّوْ العبد وهو أحد الأشقياء المعروفين في محلة الحيدرخانة توفي عام ١٨٨٠م . وقال الدكتور مصطفى جواد : إنّ الكلمة منسوبة إلى شخص من الأكراد اسمه ((چرو)) قال الشيخ جلال الحنفي : والذي يبدو لي أنّ الكلمة منسوبة إلى ((چري)) أي عسكر ، وكان لهؤلاء هيئة خاصة يعتمرون بها . وجمع الچراوية چراويات وهي أنواع وأصناف .. منها العذام وتكون لفتها عريضة من الأمام والعرقچين طويل ، ومنها العصفورية وتكون لفتها رفيعة والعرقچين غير طويل (معجم اللغة العامية البغدادية ، ج٢، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣).

٢١. السَفَرْطَاس : لفظة فارسية . معجم المصطلحات والألفاظ الأجنبية في اللغة العامية العراقية ، الدكتور مجيد محمد ، ص١٩٢ . وهي مؤلفة من مقطعين : سفر وطاس، أي ماعون السفر . والمعنى الإجمالي لها هو : عدة أواني بعضها فوق بعض مشكلة طبقات من الآنية التي تسمى الطاسات يوضع فيها الطعام ، ويرسل الى مكان خارج البيت . أما اذا اردنا ارجاع معنى هذه الكلمة الى العربية فهي (المطبقية) كما يسميها أهالي المنطقة الغربية من العراق ، ولكن سيطرت اللفظة التركية على تداولها ليسمونها (السفرطاس) وشاعت بهذا التسمية ، والسفرطاس هو ماعون متكون من أربع طبقات أو أقل أو أكثر مصنوعة من الألمنيوم المطلي بالنحاس الأبيض وقد ربطت هذه المواعين الأربعة المتساوية بماسكين ليسندا كل إناء من جانبيه ، ويحكم من الأعلى بعتلة محكمة تفتح وتغلق ، وله ماسك (يدة) من فوق يُحمل منها. كل هذا للاختصار من إكثار المواعين وتوفيراً للمساحة وخفة في الحمل؛

لأنه دائما ما يبعث الى أماكن بعيدة خارج البيت كأن يكون الى محل ، أو عمل ، أو حقل ، أو دائرة أحد أفراد الأسرة الذي تطول ساعات العمل وغيابه هناك طويلاً ، وغالباً ما يوضع في الطاسة الأولى التمن وفي الثانية المرق وفي الثالثة السلطة ، أو اللبن ، وفي الرابعة قرص الخبز والتمر ، وتعلق ملعقتين في جهتي الماسك من الأعلى . أما في هذه الأيام ؛ فإن السفرطاس قد اختفى ، أو انقرض ، أو على وشك الانقراض لتحل محله الحافظات المتنوعة لحفظ الطعام ونقله ، وبقي السَفَرْطاس عبارة عن تحفة أثرية نادرة من الموروثات الشعبية العراقية تعتز به العوائل في بيوتها.

٢٢. ينظر : طوارق الظلام ، توفيق جاني الناشي وابتسام نعيم الرومي ، ص٩ ـ ١٠ .

٢٣. ديوان الرصافي .

٢٤. ينظر : طوارق الظلام ، توفيق جاني الناشي وابتسام نعيم الرومي ، ص١٣ـ ٨٦ .

٢٥. سيباط ، صيباط : لفظة عربية فارسية تعني سقيفة . ينظر : معجم المصطلحات والألفاظ الأجنبية في اللغة العامية العراقية ، الدكتور مجيد محمد ، ص٢٠٣ .

٢٦. الكيبل Cable : هو القابل ، أو الضفير ، وهو سلك مجدول ومغلف أحياناً حيث يستعمل لنقل التيار الكهربائي ، أو لأغراض سحب الأثقال ، أو نقل الحركة الآلية من مكان إلى آخر . ينظر : معجم المصطلحات والألفاظ الأجنبية في اللغة العامية العراقية ، الدكتور مجيد محمد ، ص ٢٨٤ . وقد استعمله رجال الأمن في تعذيب المعتقلين .

٢٧. التبيان في شرح الديوان بشرح أبي البقاء العكبري ، ج١، ص٣.

٢٨. أسست محكمة الثورة في رئاسة المشير عبدالسلام عارف رئيس الجمهورية العراقية استنادا الى الفقرة الثانية من قرار المجلس الوطني لقيادة الثورة المؤرخ في ١٠ ـ ٣ ـ ١٩٦٣م بناء على ما عرضه وزير الدفاع صالح مهدي عماش واقره المجلس الوطني لقيادة الثورة ، إذ تألفت من : المقدم الركن حسين عبد الجبار ـ عضوا ، المقدم الر كن حسن مصطفى النقيب ـ عضوا ، الرئيس فاضل جاسم العاني ـ عضواً احتياطيا.

٢٩. التيه الفقهي ، شريعة بغير الله ـ فقهاء بلا شريعة ـ دراسة نقدية في حقيقة التشريع بعد الغيبة الكبرى ، أحمد كاظم الأكوش ، ص٥٢ ـ ٥٣.

٣٠. سورة الإسراء ، الآية الكريمة ٦٧.

٣١. سورة يونس ، الآيتان الكريمتان ٢٢ ـ ٢٣.

٣٢. الآلهة البشرية ، عادل رؤوف ، ج١ ، ص١٢.

٣٣. نهج البلاغة ، تحقيق الشيخ قيس بهجت العطار ، ص .

٣٤. الليوان : اِيوان ، جمعه اَواوين واِيوانات ، وهو بناء معقود له ثلاثة جدران وتكون واجهته مفتوحة مكشوفة ، قال الجواليقي : ((الايوان أعجمي)) و ((اِيوان كِسْرَى)) لا يزال طاقُه وبقية من جدرانه باقية في منطقة ((سلمان باك))، أي المدائن . معجم اللغة العامية البغدادية ، ج١،ص٤٠٨.

٣٥. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندواوي ، ص٤٠ ـ ٤١.

٣٦. الإلهيات على هدي الكتاب والسنة والعقل ، الشيخ محمد مكي العاملي ، محاضرات الشيخ جعفر السبحاني ، ج٣ ، ص٤٢.

٣٧. سورة الأعراف ، الآية الكريمة ٣ .

٣٨. قصة الحضارة ، ول ديوارنت ، ج٢، ص٨٢.

٣٩. التيه الفقهي شريعة بغير الله ـ فقهاء بلا شريعة ـ دراسة نقدية في حقيقة التشريع بعد الغيبة الكبرى ، أحمد كاظم الأكوش ، ص٦٣.

٤٠. مبادئ الوصول إلى علم الأصول ، العلامة أبو منصور الحسن بن يوسف المطهر الحلي ، تحقيق عبدالحسين محمد البقال ، ص٢٤٠.

٤١. رسائل الكركي ، تحقيق الشيخ محمد الحسون ،ج٣ ، ص١٧٥.

٤٢. معالم الدين وملاذ المجتهدين ، الشيخ جمال الدين نجل الشهيد الثاني زين الدين العاملي ، ص٢٣٨.

٤٣. صناعة العقول بين التقليد الفقهي وثقافة التقليد ، عادل رؤوف ، ص٥١.

٤٤. ينظر : خفايا وأسرار من سيرة الشهيد محمد باقر الصدر ، العلامة الشيخ عفيف النابلسي ، ص٢٦.

٤٥. ينظر : إلى طالب العلم ، علي الكوراني العاملي ، ص٢٢٠.

٤٦. ينظر : المصدر نفسه ، ص٢٢٦.

٤٧. ديوان أبي نواس ، ص٧٠٥.

٤٨. حول فتوى الإمام الحكيم في سبيل البحث عن معيار دقيق في العلاقات الإنسانية ، جاسم المطير ، مجلة الموسم ، ص١٧٠.

٤٩. المصدر نفسه ، ص١٧٠.

٥٠. بَلَمْ : البلم هو القارب وجمعه ((بْلامْ)) و((بْلامَة)) وكذلك يقال ((بَلَماتْ)) في لغة الصبيان في الغالب .. وجاء في أغانيهم ((كُلِّ البْلامْ تْفوتْ ، عَيني عْلَى بَلْمَكْ)) باسكان اللام ، والأصل فيه الفتح .. وصاحب البلم وكذلك الذي يجدف به ، يقال له بَلاّمْ وجمعه بَلاّمَة ؛ وبَلَمْچي وجمعه بَلَمْچيّة .. وأصل اللفظة من Palm اللاتينية للنخلة ، إذ كان البلم يصنع من جريدها وكَرَبها ، وربما اتخذ من جذوعها ((معجم اللغة العامية البغدادية ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، ج١ ، ص٥٩٢) .

٥١. أَكْمَكْخانَة .. أكمكخانة : محلة في بغداد قرب القشلة ، والأصل فيها أنها المخبز العسكري منذ أيام الحكومة العثمانية ؛ واللفظ من التركية بهذا المعنى .. ويطلق الآن على جانب من هذه المنطقة اسم شارع المتنبي ويراد به الشاعر .. وتقع على رصيفي الشارع جمهرة من المطابع والمكتبات وبعض محلات تصحيف الكتب ومعامل الزنكراف وعدد من المطاعم (معجم اللغة العامية البغدادية ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، ج١ ، ص٢٦٤) . ومن الخطأ ما يذكر في بوابات الانترنت أن : قشلة بغداد : وهو مبنى القشلة قرب شارع الأكمكخانة والمسمى حالياً شارع المتنبي وهو موقع المدرسة الموفقية سابقاً.

٥٢. مجلة الموسم ، العدد التاسع والثمانون ، السنة الثالثة والعشرون ٢٠١١م ، القسم الأول ، ص٢٩٤ ـ ٢٩٥.

٥٣. تكونت أسرته من زوجته ورفيقة حياته الاجتماعية والسياسية سنية شلغيم (ت١٩٩٦م) ، وولده الأكبر قاسم (ت١٩٩٠م) ، وقسيمة (تولد١٩٤٧م) ، ونعيمة وحليمة التوأم (تولد١٩٤٩م) ، وسلام (تولد١٩٥٤م) ، وثائر (تولد١٩٥٦م) ، وخالد (تولد١٩٥٩م) ، والتوأمان (عادل ورباح تولد١٩٦٣م) .

٥٤. ينظر : أمالي السيد طالب الرفاعي ، رشيد الخيون ، ص١٨٤ ـ ١٨٧.

٥٥. مجلة الموسم ، العدد التاسع والثمانون ، السنة الثالثة والعشرون ٢٠١١م ، القسم الأول ، ص١٧٩ .

٥٦. راجع لقاء الحنانة الذي أجراه الشيخ النعماني مع السيد محمد محمد صادق الصدر .

٥٧. اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، السيد محمد الصدر ، ص٧.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أصول أسماء المدن والمواقع العراقية ، جمال بابان ، ط٢ ، دار الثقافة والنشر الكردية ، بغداد ، ٢٠١٣م .

٢. الأدب الشعبي العراقي ، ماجد شبر ، دار كوفان ، لندن ، ١٩٩٥م .

٣. إلى طالب العلم ، علي الكوراني العاملي ، د.ط ، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م .

٤. الآلهة البشرية ، عادل رؤوف ، المركز العراقي للإعلام والدراسات ، دمشق ، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م .

٥. الإلهيات على هدي الكتاب والسنة والعقل ، الشيخ محمد مكي العاملي ، محاضرات الشيخ جعفر السبحاني ، ط٦ ، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ،/ قم ، ١٤٢٦هـ.

٦. أمالي السيد طالب الرفاعي ، رشيد الخيون ، دار مدارك للنشر ، دبي ، ٢٠١٢م.

٧. الأمثال البغدادية ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، مطبعة أسعد ، بغداد ، ١٩٦٤م .

٨. تاريخ بلدية بعقوبا في العهد العثماني ، السيد أحمد الرجيبي الحسني ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٩. التبيان في شرح الديوان ، أبو البقاء العكبري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٨م .
١٠. التيه الفقهي شريعة بغير الله ـ فقهاء بلا شريعة ـ دراسة نقدية في حقيقة التشريع بعد الغيبة الكبرى ، أحمد كاظم الأكوش ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، ٢٠١٧م.
١١. جمهرة الأمثال البغدادية ، عبدالرحمن التكريتي ، منشورات وزارة الأعلام العراقية ، مطبعة الشعب ، بغداد ، ١٩٧٨م .
١٢. خفايا وأسرار من سيرة الشهيد محمد باقر الصدر ، العلامة الشيخ عفيف النابلسي ، سحاب دانش ، قم ، ١٤٣٧هـ .
١٣. دليل المملكة ـ الدليل الرسمي للعراق لسنة ١٩٣٦م ، مكتبة الحضارات ، بيروت ، د.ت.
١٤. الدين والحضارة الإنسانية ، د محمد البهي ، مطبعة الحرية ، بيروت ، ٢٠٠٠م.
١٥. ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د.ت .
١٦. ديوان الرصافي ، شرح وتصحيح مصطفى السقا ، ط٤ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م .
١٧. رسائل الكركي ، الشيخ علي بن الحسين الكركي (المحقق الثاني) ، تحقيق الشيخ محمد الحسون ، مطبعة الخيام، قم ، ١٤٠٩هـ .

١٨. شعراء ديالى ، خضر الكيلاني ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .
١٩. صناعة العقول بين التقليد الفقهي وثقافة التقليد ، عادل رؤوف ، المركز العراقي للإعلام والدراسات ، دمشق ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .
٢٠. طوارق الظلام ، توفيق جاني الناشي وابتسام نعيم الرومي ، دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر ، بغداد ، ٢٠٠٨م .
٢١. العراق ، حنا بطاطو ، ترجمة عفيف الرزاز ، دار الحياة للنشر والتوزيع القاهرة ، ٢٠١١م .
٢٢. قصة الحضارة ، ول ديوارنت ، دار الجيل ، بيروت ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
٢٣. مائة عام من الإسلام السياسي بالعراق ، رشيد الخيون ، القسم الأول ، مركز المسبار للدراسات والبحوث ، دبي ، ٢٠١١م.
٢٤. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندواوي ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨م.
٢٥. مبادئ الوصول إلى علم الأصول ، العلامة أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي الحلي ، تحقيق عبدالحسين محمد علي البقال ، ط٣ ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، قم ، ١٤٠٤هـ .

٢٦. مجلة الموسم ، العدد التاسع والثمانون ، السنة الثالثة والعشرون ، القسم الأول ،الشيعة والشيوعية مساجلات في الدين والماركسية ، دار الرافدين ، بيروت ، ٢٠١١م .

٢٧. معالم الدين وملاذ المجتهدين ، الشيخ جمال الدين نجل الشهيد الثاني زين الدين العاملي ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم ، د.ت .

٢٨. معجم المصطلحات والألفاظ الأجنبية في اللغة العامية العراقية ، الدكتور مجيد محمد ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠م .

٢٩. معجم اللغة العامية البغدادية ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية ، ١٩٧٨م.

٣٠. معجم مؤرخي الشيعة ، صائب عبدالحميد ، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ، إيران ـ قم المقدسة ، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣١. من تاريخ بعقوبا وما حولها ، طه هاشم الدليمي ، المطبعة المركزية ـ جامعة ديالى ، العراق ، ٢٠١٣م.

٣٢. موسوعة الكنايات العامية البغدادية ، عبود الشالجي ، مطبعة دار الكتب ، بيروت ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

٣٣. نهج البلاغة ، تحقيق الشيخ قيس بهجت العطار ، مؤسسة الرافد للمطبوعات ، قم ، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م .

٣٤. اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني ، السيد محمد الصدر ، تحقيق مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية ، قم ، ٢٠٠٦م.

المحتويات

إهداء ٧

مقدمة ٩

قبل البداية ١٢

القلعة ... عرب الهويدر ١٥

الهويدر الخضراء ... ولادة الأكفاء ٢٠

فكانت الولادة ٢٤

سمات وشمائل ٣٣

قطوف..... ٥٠

في سؤر الاضطهاد ٦٠

صراع القناعات ٨٥

من صدى الأماسي ٩٩

مناقشات حمر ١٤٠

وكانت النهاية ١٥٥

ما وراء السطور ١٥٨

المصادر والمراجع ١٦٨

المحتويات ١٧٢